الفصل الثاني

صـــورة نـار الحـرب

في الشعر الجاهلي

obeikandl.com

النار مخلوق شرير مخيف

كان للنار وجهها الشرير في التصور العربي إلى حد عدها مصدراً قوياً من مصادر تصورات الإنسان الجاهلي ، من هذه التصورات ما زعموا أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل وإخلال السابلة ([٣٣٠]) بل عدها الأصل في خلق " الجن " الشيطان " المخلوق الشرير، لدرجة وصفها بصفة شيطانية تتمثل في الجحيم([٣٣١]) ويعرض فريزر للروح الشريرة التي كانت تأتى كل شهر في شكل سفينة نارية من المشاعل الملتهبة يقرب لها الناس عذراء ، نقلا عن وصف ابن بطوطة لجزيرة العرب ([٣٣٢]) وهذا الوجه كان له انعكاسه المؤثر على حياتهم ، فسيطرت النار على كثير من ممارساتهم معتقدين فيها قوة سحرية فأوقدها في الحلف المقدس وأشهروا بها الغادرين وربما جاءت عباداتهم للأصنام الحجرية ، لان النار لا تقدر على
إحراقها([٣٣٣]) وأوقدوها خلف من يكرهون ويخافون شره وهذه التي عرفت بنار الطرد([٣٣٤])٠

وعلى هذا الأساس المرعب كانت هيبتها التي جعلتهم يخشونها ، واعتقدوا فيها قوة إلهية عادلة، هذه القوة استخدمت كعقاب للمخالف للأعراف والقوانين ، ومنها مفهوم

---

(١)- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي مرجع سابق حـ٧ ص ١٤٨

(٣٣١)-انظر النار في التحليل النفسي ٠ بشلار ص ٩٣ ، إبليس للعقاد ص ٤٠ ، ٤٤
الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ٧٦ ، ومروج الذهب للسعودي حـ١ص٢٩،٣٠
البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٤ حـ١ ص ٥٥

(٣)- الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د٠ أحمد أبو زيد حـ ١ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠

(٤)- المطر في الشعر الجاهلي د٠ أنور أبو سويلم دار الجيل عمان ١٩٧٨ ص ٩٥ ، ٩٦

(.٥)- خزانة الأدب للبغدادي حـ ٧ ص ١٤٨

جهنم " Hell " في الشرق الأوسط([٣٣٥]) وقد فسر البعض طقس السير على النار إنه تطهير وتنقية للمشترك في جريمة لإثبات البراءة ([٣٣٦]) ٠

وهذا الشكل المهيب الرادع للنار استخدم من أقدم العصور لا بتلاء المتهم واختيار براءته على أساس أن النار تعاقب المجرم ، وقد ظهر في المجتمع العربي ما يُعرف بالبشعة وهى طقس موروث في البيئة من أقدم العصور([٣٣٧])

وقد ذكر الطبري في تفسيره قصة إسلام تُبَّع وتحاكمه إلى النار([٣٣٨]) كما أورد الجاحظ في الحيوان أيضاً عن نار الحلف في اليمن وسدنتها، ووصف طريقة التحالف،([٣٣٩]) إذ وردت نار الحلف في الشعر العربي القديم([٣٤٠]) : منه قول أوس : ـ

إذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صد بوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ المهَوِّل حَالِفُ

وقال آخر:

حَلَفْتُ بالمِلْحِ والْجَمْعُ شُهَـدُ وَبالنَّارِ واللَّاتِ التي هي أعْظَمُ

وقال الكميت :

كَهَوْلَةِ ما أَوْقدَ المحلفـــوْنَ لَدَى الحَالِفِيَّنَ وَما هَـوَّلُــوا

---

(٦) -The ency – Americana vol "11" p "242"

(٧) - Man myth and magic p " 971

وراجع أيضاً The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 791

(٨)- النظم العربية المعاصرة د٠ محمود سلام زناتي ص ٣٨٥

(١)- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري مجلد١١ حـ٢٦ص٩٧

وانظر تاريخ الأُمم والملوك للطبري ، دار إحياء التراث بيروت د٠ت حـ١

(٢)- الحيوان للجاحظ ، حـ٥ ص١٧٣

(٣)- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى مصر١٩٧٥ط٤حـ٣ص٨،٧

(٤)- قد سبق الحديث عن نيران العرب وذكرت المصادر المؤرخة لها في الجزء النظري من البحث

وقال أوس :

حَلَفْتُ بالمِلْحِ وبالرمادِ والنَّـ ـارِ وباللّه تَسَلَمُ الحَلَفَـــة

حتَّى يَظَلَّ الجَوادُ مُنْعفِـرًا ويُخْصَبُ البَلْلُ غُـرَّةَ الدَّرقَـهْ

ومن هنا بزغت نار الحرب على أنها معاقبة للمعتدى رادعة للشر"الخصم" يسلطونها على من يطغى ووردت نار الحرب في أغلب كتب الأخبار والأدب التي تحدثت عن نيران العرب([٣٤١]) إذ كانت العرب توقد نيرانا أمام الجيوش في الحرب وقد أثار القرآن هذه الظاهرة عن اليهود وفتنهم في سورة المائدة فقال تعالى : " كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها اللّه" ([٣٤٢]) وقد ذهب المفسرون إلى الدلالة المجازية لنار الحرب بأنها الفتن والوقيعة والإعداد لها([٣٤٣]).

بهذا الشكل الذي اكتسبته من طبيعتها أصبحت النار أسطورة في حياة العرب انعكست عنها هذه الممارسات التي كان الإنسان البدائي يستعين بها لجلب الخير ودفع الشر، ([٣٤٤])، ومن هذا الإدراك الأسطوري الذي منه ولدت الصورة الشعرية التي ليست في جوهرها سواه([٣٤٥]) فالفن في المجتمعات البدائية كان مرتبطاً عادة بالسحر

---

(٥)- سورة المائدة آية ٦٤

(٦)- راجع التفاسير السابق ذكرها في هذه الآية .

(١)- الصورة الأدبية د.مصطفى ناصف ص٨

(٢)- المرجع نفسه ص٧، وراجع الأساطير والخرافات عند العرب د.محمد عبدالمعين خان- دار الحداثة بيروت ١٩٨٢ص٣٢٠

والممارسات، لأنه كان ذا وظيفة مقدسة حتى أنه لم يوجد فن إلا وكان دينيا([٣٤٦]) وكل التجارب الإنسانية للبدائيين تمثل نسيجاً من خيوط هي اللغة والأسطورة والدين والفن، وأشار توماس مونرو إلى أنها : " أجزاء من عالم رمزي يخرج الشاعر من العالم المادي ليعيش فيه عند تجاربه ([٣٤٧])٠

ويشير د٠ أحمد كمال زكى إلى ضرورة الربط بين المجاز أو الرمز، بأسطورة مجهولة المعالم لتفسير ما يقع الشاعر الجاهلي في ترديده ([٣٤٨])٠

ومن هنا يصبح واجب الناقد أن يتعدى البحث عن جماليات العمل الفني وتفسيره بإيجاد الروابط بينه وبين صاحبه وأحوال مجتمعه إلى البحث عن الماضي الثقافي والاجتماعي والإنساني لهذا العمل الإبداعي([٣٤٩])٠

وبصدد استخدام صورة النار في رسم لوحة فنية للحرب في الشعر الجاهلي، يحاول الباحث تحديد هذه الروابط وتحليل هذه الاستخدامات الفنية عند هؤلاء الشعراء ٠

---

(٣)- بحث في علم الجمال جان بار تليمى ترجمة د٠أنور عبد العزيز راجعه د٠نظمى لوقا مطبعة نهضة مصر ١٩٧٠ ص٥٧٣

(٤)- التطور في الفنون توماس مونرو ترجمة محمد أبو ريدة وآخرين
الهيئة العربية للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١ حـ١ ص٣٤٥

(٥)- مجلة فصول مقال د٠أحمد زكى التفسير الأسطوري للشعر القديم عدد٣إبريل١٩٨١

(٦)- المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي د٠عبد الفتاح محمد أحمد ص٣٧

obeikandl.com

لقد تمدَّد احترام النار في نفوس البشر من خلال شدة حرارتها وهياج ألسنتها وبشاعة آثارها على الأجسام إلى خوف ورعب – وكما ذكر – ربطت بالانتقام فهي التي يدعى بها على الأعداء، وتوقد في أثر من يكرهون وذكر أن العرب تدعو على العدو فيقولون : " أبعدَ اللّٰه داره وأوقدوا نارا في أثره"

وقال الشاعر :

وجمَّة أَقوامٍ حَمَلْتُ وَلَمَ أَكَــن كَمُوقِدِ نَارٍ إِثْرَهُمْ لِلتنَّـــدُّمِ(٣٥٠)

كان لطبيعة بلاد العرب وتركيبتهم الثقافية والدينية دور كبير في تجلى هذه المشاعر تجاه النار حتى ظهرت في أجلى صورها متجسدة في الحرب التي كانت تعنى دمارا وخرابا، فهي ذات أنياب عُصل تعرك الناس كعرك الرحى بثقالها٠

وقد شبه نصر بن يسار الحرب بالنار صراحة "قائلاً"(٣٥١)

أَرَىَ خلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ وَيُوْشِكُ أَنَ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بالعُودَينِ تُرْكَــى وإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَــلاَمُ

فإِنْ لَمَ يُطْفِها عُقَلاَءُ قومــي يكون وَقُودَها جثثٌ وهَـامُ

ورغم هذا الشاعر أموي إلا أن الصورة لديه تمثل امتداداً للصورة النارية للحرب في الفكر العربي على مر التاريخ ٠

(١)- عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي تحقيق د٠محمد زغلول سلام منشأة المعارف الإسكندرية د٠ت ص٧٥ وراجع لسان العرب مادة "نور"

(٢)- عيون الأخبار لابن قتيبة دار الكتاب العربي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية١٩٢٥ حـ١ ص١٢٧، ١٢٨ ٠

والشاعر هنا يريد التحذير، فالحرب كالنار بتشبيه مركب بشكل تمثيلي، فالنار تنتج عن احتكاك عودين ([٣٥٢]) والحرب تنتج مثلها مع ملاحظة العلاقة بين الفعل " يوشك" في البيت الأول "يوشك أنْ يكون له ضرام" والشطر الثاني من البيت الثاني " وأنّ الحرَبّ أولها الكلام " فالفعل" يوشك" يعنى أن الوميض ينتظر أقلَّ شيء " النفخة " كي يشتعل، وكذلك الحرب يشعلها أقل شيء"الكلام" كما نلاحظ المصدر المشعل للوميض وللحرب، وما يبدو من خلف هذه الصورة ٠

وهو " الفم " (بالنفخ مع الوميض ، وبالكلام مع الحرب) إذن الحرب والنار متشابهتان حتى في مصدر تحريكهما من الثبات٠

وإذا تُركت النار ترعى تكون لها نتائج دمار في شكل وقود تغتذى عليه وأيضاً الحرب لها وقود مثل النار ولكن هو أجساد الضحايا ، وهذا الخلط والتداخل بين صورتي الحرب والنار يعكس رؤية الشاعر نحو الحرب والنار بشكل تشاؤمي فهما متماثلتان في الفتك والتدمير ٠

وصورة النار لا تفارق وصف الحرب في أغلب مواضع الحديث عنها ، فعمرو بن معديكرب يصفها بأنها بعد إغرائها كالحسناء أول الأمر تصبح عجوزاً شمطاء محلوقة الرأس رائحتها نتنة لا يستطيع أحد تقبيلها أو الاقتراب منها ليشم رائحتها ، وهذه أبشع الصور وأشدها تنفيرا ولا يفوته ذكر خاصيات النار وأفعالها قائلاً :

---

(٣)- راجع تحليل بلوغ الأرب للألوسى حـ١ ص١٦٧، ١٦٨ ٠

وراجع -The ency – Americana vol "11" p "242"

- The new Ency – Britannica vol " 4 " p " 788"

الحَرب أولَ ما تكُونُ فتيَّـــةً تَسعَى بِزِينَتِها لكل جهُـــولِ

حَتّى إذا اشتَعَلتَ وشَبَّ ضَرامَهَا عَادَت عَجُوزاً غير ذَات حَليلِ

شَمطَاء جَزَّت رأسَها وتَنكَّرتْ مَكروهَةً " للشَّم والتقبِيـــلِ([٣٥٣])

وتتداخل هنا الصورة المقززة المنفرة للمرأة الشمطاء مع الصورة المرعبة المخيفة للنار المشتعلة لتجسيد صورة الحرب إلى جوار أن الشاعر زيادة في التنفير يشير إلى من تسعى الحرب إليه فهي تسعى لكل جهول " فلا ينخدع بها ولا يصاحبها إلا الجاهل ، ومما يؤكد جهل هذا الجاهل ، أن هذه الحرب تفنية وقد لا تفنى غيره .

" وعادت عجوزا غير ذات خليل "

ومن أكثر الصور شهرة في مجال الحرب صورة زهير التي يقوم فيها بتكثيف التشبيهات المختلفة المتزاحمة إلى حد إخفاء بعضها البعض كما يشير لذلك الدكتور طه حسين . ([٣٥٤]) يقـــول زهير :

وَمَا الحَربُ إلا ماَ عَلِمتُمْ وذقتـم وَمَا هُو عَنْهَا بالحَدِيثِ الَمرجَّمِ

مَتى تَبْعَثُوهَا تَبْعثُوهَا دَمِيْمَـــة وَتَضر إذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرمِ

فَتَعرُكُكُمُ عَرَكَ الرَّحَى بثفالهَـا وَتَلْقحْ كِشَافاً ثم تـحِمــلْ فَتُتئِمِ

---

(١)- راجع العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي تحقيق د٠مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨ حـ١ ص ٨٦

وراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة حـ ١ ص ٣٧٣

الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص٦٤، ١٥٩

(٢)- في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٢٨٧

obeikandl.com

فَتُنتجْ لَكُم غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُـــمْ كأحمرِ عَادٍ ثم تُرضِـعْ فَتَفْطِمِ

فَتُعْلِل لَكُمْ مَا لاَ تغلُّ لأَهْلهَـــا قَرى بْالعَراقِ مِنْ قفيرٍ وَدرهَمِ([٣٥٥])

هذا التراكم في صورة الحرب باستخدام صور النار وغيرها ، من الصور يجسد هدف الشاعر، وهو التنفير والتحذير من الدخول في الحرب ، وتركيزنا هنا على صورة النار ومدى توظيفها الفني تحت تأثير الشكل الأسطوري البشع لها ، والمترسب في نفس الشاعر والذي يدلف منه بدون وعى إثناء تحذيره وتنفيره من الحرب .

وإذا تأملنا الفعلين " تضر " و " تضرم " نجد علاقة بينهما ، فهما فعلان منسوبان للحرب إنها " تضر" وتضر أى تغتر أو "لهجت" ومنه ضرى الكلب بالصيد إذا تطعمه بلحمه ودمه([٣٥٦])"

" وتضرم " أى تشتعل وتلتهب([٣٥٧]) والفعلان ينسبان للنار وفيهما معاني الحركة والنشاط والانتقام .

وعلى المستوى الصوتي لوحظ التجانس بين (تضر – ضريتموها – تُضرم) حيث تتوالى أصوات الضاد والراء مع التشديد أحيانا ، مما يعكس إحساساً بالصراع والعنف والاحتكاك ، كالإحساس المنعكس عند رؤية فعل النار وهى تضرم في الحطب وتأكل كل أخضر ويابس ، مما يساعد على تشكيل صورة تقرب المعنى المجهول الذي يريد الشاعر إن

راجع ديوان زهير بن أبى سلمى ص ١٨ ، وراجع بشرح الديوان لابن يحيى الشيبانى طبعة الهيئة العامة للكتاب 1) (ص ٣١ وراجع تعليق الدكتور طه حسين " في الأدب الجاهلي " ص ٢٨٧

(2) راجع لسان العرب مادة " ضري " حـ ٣ ص ٢٥٨٣

(٣) نفسه مادة " ضرم " حـ ٣ ص ٢٥٨٢ ، ٢٥٨٣.

يرسمه للحرب ، باستخدام أفعال وخواص النار ذات الوجه القاسي الذي سبق الحديث عنه في الخيال العربي .

ويريد زهير أن يُحِّمل هذه المسئولية للإنسان فيضع الشرط "إذا" أى الذي يضريها هو الإنسان وهو سبب مباشر في هذه النتائج .

لذا تأكل الحرب مشعليها وتعركهم كعرك الرحى أو هي الأنثى البغيضة التي تلد غلمان أشائم مشوهين فتبقى آثارها على مدى الأيام

ويكرر زهير التحذير من الحرب قائلاً:

إذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوُان مُضِرَّة ضَرُوْسٌ تهَّر النَّاسَ أنيُابُها عُصْل

قُضَّاعيَّةٌ أوْ أُحْثُها مُضَرِيَّــةٌ يُحَرَّقُ في حَافاتها الحطبُ والجَدَلُ([٣٥٨])

فهي أيضاً "سيئة الخلق" ضروس" يكرهها الناس ويهربون منها وأنيابها معوجة – لاحظ الصورة البشعة لمخلوق يفتح فاه على الناس وله أنياب عوجاء تخيف كل من يراها – ولم يترك صورة النار في رسم هذه اللوحة فهي متأججة تأكل الحطب الجزل في حافتها فكيف به في وسطها؟!

وتلاحظ صفة " الأمومة ذات الخصوبة المكروهة للحرب ، بالعلاقة بين الفعل " لقحت" في هذه الأبيات " وتنتج لكم غلمان أشأم" في الأبيات السابقة فتتضافر كل هذه الأوصاف بمساعدة صور النار لترسم الصورة المنفرّة للحرب، ومن صور زهير في الحرب أيضاً. أبيات ينصح فيها لبنى سليم حينما بلغه أنهم يدبرون للإغارة على غطفان :

فيقول : حُدُوا حَظَّكُمْ يا آلَ عِكْرِمَ واذكُرُوا

٢- ديوان زهير دار صادر بيروت د.ت.ص .٦.

أَواَصِرَنا وَالرحْمُ بالغَيْبِ تُذْكَرُ

حُدُوا حَظَّكُمْ مِن وُدَّنا إنَّ قُرْبنَا

إذَا ضَرَّسَتنَا الحربُ نَارٌ تَسعَّرُ

وإنَّا وإيَّاكم إلىْ ما نَسُوَمكُم

لَمِثْلاَنِ أَو أَنتُم إِلَى الصَّلـحِ أَفْقَرُ([٣٥٩])

يلاحظ هنا في البيت الثاني تصريحه بأن الحرب نار تُسعَّر وتَضرس الناس وهى نفس المواصفات التي أشار إليها في المقطوعات السابقة .

ومما تجدر الإشارة إليه تطوير صورة نار الحرب لدى زهير في هذه المقطوعة ففاعلها مجهول " تُسعَّر " وهذا البناء يفيد أن الفاعل ليس الناس وهذا خلاف ما أورده في المقطوعة قبل السابقة " متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ، وتضر إذا ضريتموها فتُضرم " فالنار الآن عند زهيرتُسعَّر وهذا يجلب خطورة أكثر على السامعين ، إذا هم جهلوا مصدر استعارها فهي غامضة المصدر. ويكثر تكرار صورة الحرب بأنيابها العصل محملة بصور النار واضحة لدى كثير من الشعراء([٣٦٠])

وراجع تعليق د. على البطل في كتاب الصورة في الشعر العربي ص ٦٣

٢- ديوان زهير ص ٣١

(١)- راجع ديوان أوس بن حجر تحقيق د٠محمد يوسف نجم دار صادر بيروت١٩٧٩ص ٨٣ ،٨٤
وشعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو دار المشرق بيروت د. ت ص٢٠٧
وديوان دريد بن الصمة تحقيق د.عمر عبد الرسول دار المعارف مصر ١٩٨٥ ص١٢٢
وديوان الأعشى دار صادر بيروت د. ت ص ٦١

obeikandl.com

وعند أوس ترد الحرب في لوحة محملة بصورة النار أيضا، ولكن القارئ يستشعر في صورة أوس أن هذه النار غير النار التي قصدها زهير وغيره آنفاً، فهي عند أوس محمودة إلى حد ما لأنها نار دفاع، ولذلك فهو يلمس فيها الفخر ويصفها بالأفعال " تحسُّ وتسفعُ " فيقول :([٣٦١])

تَكَفففَنَا الأعْداءُ مِنْ كُلَ جَانِبٍ لِيَنتُزِعُوا عرقاتِنا ثُمَّ يَرْتَعُوْا

فَمَا جَبنُوا أنَّا نَسُدُّ عَليهِـــمُ وَلكِنْ لقَوْا نَاراً تُحَسُّ وَتسفَعُ

فحربهم للدفاع عن مقَّدرات حياتهم ، نار مقدسة يفتخر بها ويذكرها دون ذم لها وهو يعاقب بها كما كانت من قديم تستخدم كعنصر عقاب وتعذيب منذ كان الكهنة يستخدمونها في المحاكمات بالتعذيب([٣٦٢])

هذا وقد سبق الحديث عن النار، ككائن قوى ومهيب ومستخدم في المحاكمة والعقاب عند كثير من الأمم من خلال المصادر ودوائر المعارف ، وهو ما عرف عند العرب بنار الطرد أو المتمثلة في الجحيم التي يعاقب بها المجرمون .

وعنترة بن شداد يذكر تلك النار في الحرب التي يعاقب بها من اعتدى فيقول([٣٦٣])

فجاءوا عَارضاً بَردَا وجئْنَـا حَرِيقاً فِي غَرِيفِ ذِي ضِرامِ

ويطالعنا النابغة بعد هذه الصور الشريرة للنار بصورة مشئومة لها ضررها الخرافي ليس على الإنسان فحسب ، بل يمتد أثرها إلى الكواكب في السماء ، ويضطرب فيها النور على الأرضُ

---

(٢) - ديوان أوس بن حجر تحقيق د.محمد يوسف نجم ص ٥٧، ٥٨

(٣) - The new Ency – Britannica vol " 4 " p " 791"

(٤)- ديوان عنترة بن شداد دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ ص ٤٣ .

، وكأن كارثة تقع بوقوع هذه الحرب ، حيث يختل نظام الكون وتظهر الكواكب مع الشمس في ذات الوقت ولا يتميز فيها الضـوء عن الظلام فيقـول : ([٣٦٤])

إِنِّي لأَخْشَى عَلَيكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمَ مِن أَجْلِ بَعْضَائِهِمْ يَومٌ كأَيَّـامِ

تَبْدُوُ كَواكِبُه والشَّمسُ طَالِعَـةٌ لا النُّورُ نُور وَلاَ الإظلاَم إِظْلاَمُ

وهذه صورة بشعة للحرب يجسّدها الشاعر مستخدما أيضا العناصر الضوئية التي تمثل جزءا مهما في حياة العربي ، واضطرابها يعنى دمار الكون ، وقد فسر ابن عبد ربه الأندلسى هذا البيت ممثلا بما تقوله العامة : أريته النجوم وسط النهار"([٣٦٥])

وصَورة الكواكب ، والشمس والنور والظلام جاءت كلها متضافرة في وقت واحد لترسم لوحة الحدث الجلل الذي يظهره الشاعر وكأنه " نهاية العالم " الذي يراه الشاعر مستقراً في انتظام أجرامه السماوية وانتظام الليل والنهار.

والحرب نار" بذاتها وصفاتها " يفتخر العربي ويمدح بدخولها

وقد ورد ذلك في كثير من أشعارهم بأن الحرب نار تشب وتلهب وتسعَّر ولها لون كناصية الحصان الأشقر ، ويروى الجاحظ تعبيرات منها : " النار شبت ، والحرب تشب شبا"([٣٦٦])

---

(1) راجع ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٨٥ ص٨٣

(2) العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسى تحقيق مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ حـ ١ ص ٨٧ .

(3) الحيوان للجاحظ حـ ٥ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وسمَّى الأعشى الحرب نارا صراحة في قوله ([٣٦٧])

لَّا الْتقَيـنَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاحِمِنَـا لِيَعْلَمُوا أننَا بَكْرٌ فَيَنْصَرِفُـوا

قَالُوا : البقِيةَ وَالْهِنْديُّ يَحْصُدُهُمْ وَلاَ بَقِّيةَ إِلاَّ النَّارُ فَانكَشَفُـوْا

فهو يسمى الحرب في هذا الموقف والتي تسعر على الخصوم فتأكل فرسانهم ناراً ، وتُحَمَّل الحرب أفعال النار عند عامر بن الطفيل : ([٣٦٨])

يُرِيدُونَ لِلحَربِ تَكْـــرَارَهَا إِذَا أُلْهِبَتْ لَهبَـــاً تُسعَـرُ

ونلاحظ الأفعال " ألهبت " ، " تسعر " وهى من أفعال النار حيث تسند إلى الحرب في صدر البيت ، إذن الحرب نار عنده لأنها تستعير من النار أفعالها وصفاتها .

وينتج عنها عند أوس بن حجر لهب يلف نخيل الخصوم وزروعهم : ([٣٦٩])

إنْ كان ظَنِّى فِي ابْنِ هِنْدٍ صَادقاً لَمْ يَحْقِنُوها فِي السَّقَاءِ الأَوفَـرِ

حتى يَلُفَّ نَخْيلَهم وَزُرُوعَهُـم لَهبٌ كَنَاصِيةِ الحِصَانِ الأَشْقَـرِ

---

(١) ديوان الأعشى – دار صادر بيروت د. ت ص ١١٢

(٢) ديوان عامر بن الطفيل – دار صادر بيروت ١٩٦٣ ص ٦٨

(٣) ديوان أوس بن حجر تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ١٩٧٩ط ٣ص ٤٨

هذا اللهب الناتج عن نار الحرب أصفر ولامع – وهذا لون النار – مثل ناصية الحصان الأشقر، ويلاحظ في هذا التشبيه رغم أن المشبه به عنصر من عناصر بيئة الإنسان العربي إلا أنه تشبيه مقلوب ، فالأصل أن يشبه الحصان الأشقر بلهب النار في صُفرته ولكن كان العكس عند الشاعر، وهذا وارد عند شعراء العرب .

وإذا كان وقع الحرب على النفس شديداً كشدة النار على الجسد ، فالطبيعة العربية لها دور رئيسي في تأكيد هذا التشابه وتثبيت جوانبه ، بل هي رافد دافق يمد الشاعر العربي بكل ما يدفعه للثورة والانتقام إذا غضب ، فكان العربي يزاحم الحياة مجسداً لصورة الطبيعة العربية التي من أهم سماتها العنف والتطرف ، فيوصف الحجاز بأنه حاجز بين الشام واليمن هواؤه حرور وليلة بهور ينحف الأجسام ويخفف الاَدِمعَة([٣٧٠]) وهى بلاد قحط وجفاف تفرض على العربي الشقاء([٣٧١]) والإنسان العربي بوصفه من مكونات هذه البيئة فهو يتطرف كما أنها متطرفة ، إنه عنيف إلى حد التهور، وجواد إلى حد التبذير انه يتميز غيظا ([٣٧٢]) يبدو شديد التعصب شغوفاً بالحرية ذا أفق غير متسع محارباً ميالاً إلى الخصومة ([٣٧٣])

ويصفهم توماس كارليل، بأنهم طليان الشرق في قوة نفوسهم وشدة حزمهم وقوة إرادتهم ، لا يحجم أحدهم أن يقاتل صاحبه بعد إكرامه متى عادت به إليه الفرص ([٣٧٤])

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي حـ ٢ ص ٦١

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى ص ١٤

(٣) الوسطية العربية مذهب وتطبيق د٠عبد الحميد إبراهيم ص ٥١

(٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجنبورى ص ٤٨

(٥) الأبطال توماس كارليل ترجمة محمد السباعي الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة د٠ت ص٤٦

ذلك مما جعل ابن خلدون يعد العرب من الأمم الوحشية المحاربة التي جعلت أرزاقهم في رماحهم وعلل ذلك لسكنهم بالقفر([٣٧٥]).

فالحرب إذن كانت استجابة طبيعية لدوافع نفسية وحياتية، اكتسبها العربي من وحى بيئته واستلهم لها صورة معبرة من وحى البيئة نفسها للتعبير نفس عنها وهى صورة النار بشكل معبر عن الطبيعة الصحراوية الحارة والنفسية المتأججة، لتخرج هذه الزفرات في الحرب التي كانت له شفاءً من الغل . والغضب حتى عدَّ الحرب من متع الحياة التي يعيش لها الفتى ويتسابق فيها كالخمر والنساء .

فيقول طرفه :([٣٧٦])

وَلوْلاَ ثَلاَثُ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَـى وجَدُك لَمَ أَحْفلْ مَتَى قَامَ عُـوَّدِي

فِمنهُنَّ سَبَقي العَاذِلاتِ بِشَرَبَـةٍ كُمَيَت مَتَى مَاتُعْلَ بِالمَاءِ تُزبِـدِ

وَكَرِّى إِذَا نَادي المُضافُ محنبـا كَسِيدِ الغَضَى – نَبَّهْتَه - المُتوَرِّدِ

وتقصير يوم الدَّجْنَ والدَّجْن مُعْجِبٌ بِبَهْكَنةٍ تَحتَ الطرافِ المُعَمَّـدِ

ويفتخر الأسعر الجعفى بملازمتة لأهل الحرب ودوام رفعته لهم مستدلا على أنه رجل حرب **قائلا** :

وإِذَا رَأَيتَ مُحَاربا ومُسالِمـاً فَلْيَبغِنى عِنْدَ المُحَارِبِ مِنْ بَغَـىْ

---

(٦) مقدمة ابن خلدون . لابن خلدون المغربي دار العلم بيروت ١٩٨٦ ص ٢٧١ .

(٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبى بكر الانبارى، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف ١٩٦٩ (معلقة طرفة)، والمعلقات العشر بشروح مختارة من الزوزني والشنقيطي وابن النحاس والتبريزي ، مؤسسة الإيمان / دار الرشيد، بيروت/ دمشق، د.ت، ص٤١.

وينقم على من طلب السلام من قومه وإخوته معيرا إياهم بتنازلهم عن كرامتهم بترك الحرب وقبولهم السلام قائلا :

مَسَحُوا لِحَاهُمْ ثُمَّ قَالُوا سَالِمُـوا يَالَيتِنى فِي القومِ إِذْ مَسَحُوا اللِّحَى([٣٧٧])

فالعربي كان يعوده أبوه على الازدراء بكل ما يبعد عن العنف ، واحتقار المهن اليدوية وفلاحة الأرض والإشادة بكل ما يتطلب الجرأة والشجاعة والمران والمقاومة الجسمية ، فالصيد والاختطاف والحرب شغله الشاغل في الليل والنهار([٣٧٨]) والحرب أيضا كانت السبيل لإظهار البأس واستعراض القوة ورد الاعتبار أمام القبائل ([٣٧٩]) لذا نرى دريد بن الصُّمة يفتخر بخوض نار الحرب قائلا :

أعاذِلُ كَمْ مِنْ نارِ حربِ غَشِيْتُهـا وَكَمْ لِي مِنْ يَومٍ أَغَـرَّ مُحَجَّلِ ([٣٨٠])

ويفتخر حاتم الطائي باصطلائه الحرب وهى تلتهب كالنار وتستمر فيقول :([٣٨١])

وغمرة حَرْبِ لَيسَ فَيهَا هَـوَادَةُ يَكُونُ صُدُورَ الَمشْرفيِّ جَسُورهـا

صَبَرنَا لهَا فَي نَهْكِها ومصامها بأَسيافنَا حتَّى يبُوحَ سَعيْرُهـَـا

شَهِدتْ وَعَّوانا أَميمةُ أنـَّـا بَنُو الْحَرْبِ نَصْلاَهَا إِذَا اشتدَّ نُورُهَا

---

(١) الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون، دار المعارف مصر ١٩٧٩ ط ٥ ص ١٦٢ وانظر الوحشيات "الحماسة الصغرى" لأبى تمتم الطائي تعليق احمد محمد شاكر دار المعارف مصر ١٩٦٣ ص ٤٤ ، ٤٥

(٢) تاريخ الأدب العربي بلاشير ترجمة د. إبراهيم الكيلانى دار الفكر د.ت ص ٣٧

(٣) رمز الماء في الأدب الجاهلي د. ثناء أنس الوجود مكتبة الشعب القاهرة د.ت ص ٢٧١

(٤) ديوان دريد بن الصمة ص ١٥٣ ، وانظر الوحشيات "الحماسة الصغرى" ص ٢٧٣

(١) ديوان حاتم الطائي دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢ ص ٦٤

ونلاحظ في أبيات حاتم ، التداخل بين الشكل الشرير للنار والشكل الخيِّر لها وهما " السعير والنور " وهذان الشكلان يتجسدان في صورة الحرب ، فسعيرها يبوخ أي ينطفئ ، وهو يصلاها متحملا شدة حرها عند اشتداد نورها والنور لدى العربي له دلالة خيرة ، وإن كان مصدره النار إلا أنهم يستبشرون به ، فالحرب لها وجهها الحار الملهب وأيضاً لها جانب خير يتمثل في النور ، وإن اشتدت الحرارة فلها نور ويفتخر بدخول هذا النور الحار.

يقول الشامخ ضرار : ([٣٨٢])

صَليتُ بِهَا فِي المُصطَلَيْنَ بَحَّرهَا فَطَّلتْ وَقَد كَانَت شَدِيدا عضاضها

وغَمرةٍ مَوْت خفت حتَّى قَطْعتُها وَقد أفظع الحِبْسَ الهدانَ خِياضُها

وهو هنا يقاسى حرها بإرادته وسط المصطلين بها ، وكانت تحمل بداخلها موتا محققا من خلال شدة حرها وضراوتها كالنار ، ويتجاوز مخاطر كانت تفزع الجبان البليد من خوضها .

وعنترة أيضا يخوضها بروحه ودمه في حين تأجج نارها واستعارها على الناس فيقول : ([٣٨٣])

وَخُضتُ بِمهجتِي بَحرَ المَنايَا وَنارُ الحَربِ تَتَّقِدُ اتِّقَادَا

ويلاحظ استخدام عنترة صورة البحر في التعبير عن إمكانية الموت المحقق ، مع ذكر النار كعامل الموت وهى

---

(٢) ديوان الشماخ بن ضرار تحقيق صلاح الدين الهادي دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ٢١٤

" الجبس " : الجبان ، " الهدان " : البليد الأحمق

(٣) ديوان عنترة بن شداد – دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥ ص ٤٦

متقدة متأججة ، والفعل الخاص بنار الحرب " مضارع " لازم يفيد ذاتيتها في الاتقاد والتأجج ، والجمع بين صورتي البحر ، والنار يبدو هنا شذوذا للنظرة السطحية ، ولكن أكد البحر هنا فكرة الموت والهلاك فهو " بحر المنايا " اى موضع الموت من خلال تلك النار التي استطاع عنترة أن يخوض بحرها ، وهى تتقد ويؤكد هذا الفعل المضارع اللازم ، بمفعوله المطلق " اتقادا " ليؤكد المعنى ، والتناقض الملحوظ بين البحر والنار يزول بنظرتنا إلى المضاف إليه " المنايا ، والحرب " حيث تتوحد دلالة الموت والعدمية في البحر والنار ، ولا ننسى أن فكرة البحر المميت لها جذورها في اللاشعور الجمعي ، حيث إن العدم الذي سبق الوجود كان يمثل في صورة الماء والظلام .

والحرب عند كعب بن زهير حارة محتدمة فهي " وديقة" شهباء حرها يسفع كالنار فيقول :

يَتَطَّهرونَ كأنه نُسُكٌ لَهُـــمْ بدماءِ مَن عَلقوا منَ الكُفَّـــارِ

وَاَلَيهمُ اسْتقبلتْ كُلَّ وَديْقَـــةٍ شَهباءَ يَسْفعُ حَرُهَا كالنـَّــارِ([٣٨٤])

ورغم إسلام كعب إلا أن الصورة الأسطورية لا تزال عالقة في شعره متمثلة في دماء القتلى التي كانت بمثابة شفاء وريّ ، لدرجة أنهم يتطهرون به كأنه شراب يتناولونه للخلاص أو نسك ذبح في الحرم ، وتقترب هنا صورة دم القتلى بصورة الدم المنير على نحور الخيل عند بشر بن أبى خازم وسوف تعرض في الجزء التالي.

وهى تلتظى عند الأعشى كالنار، ويفتخر بأنه يدخلها ويخوضها أيضاً([٣٨٥]) وعند قيس بن الخطيم لها نيران نزكو إذا انبعث وقومه فيها ([٣٨٦]) ولا ينتهي الأمر عند

(١) ديوان كعب بن زهير صنعة أبى سعيد السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٥ ص ٣٥

الافتخار بخوضها فحسب ، بل ينتهي إلى أن الفارس يفتخر بأنه يخوض ناراً غير عادية ثم يطفئ لهيبها ويخمدها بسيفه ورماحه وكأن إطفاء الحرب يكون بالحرب كالطقس السحري يقوم الفارس لإزاحة شر الحرب بالحرب كالسحر لا يبطله إلا شئ من جنسه " والحديد لا يفله إلا الحديد ".

فيقول عنترة في هذا المعنى : (٣٨٧)

باشرُت موكِبهَا وَخُضتُ غِمارهَـا أطفأت جمر لهيبها المتوقـدِّ

ويقول عروة بن الورد أيضاً (٣٨٨)

ولَربَ مُشعُلة يَشُبُ وَقُودُهَـــا أطفأتُ حَرَ رَماحِها برَماحِـي

وكِتيبة أدَنْيتها لكَتِيبْتـــــــةٍ ومضَاغِنٍ صَبحتُ شَرَ صَبَاحِ

وإذا كانت هذه صورة النار المتجسدة في الحرب من مواضع الفخر في المقطوعات الشعرية السابق عرضها على سبيل المثال ، فإن الشاعر الجاهلي لم يغفل المدح بهذه الصورة وإذا كان الفخر والمدح غرضين شعريين متمايزين في إصطلاح الأقدمين، فإنهما يتلخصان في أنهما ثناء على أية حال ، سواء أكان على ذات المتحدث أم كان على الآخرين ، وقد أخذت صورة الحرب نصيباً غير قليل في تصوير هذا الثناء فخرا ومدحا ، فقد يوصف الفارس وأدواته وحيوانه بصور النار ، أو يمدح ، فالوصف بالصور النارية فكرة سامية قديمة ظلت عالقة بالفكر العربي ، وظهرت واضحة في الشعر الجاهلي فقد كان الإله البابلي

---

(٢) الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ١٦١

(٣) ديوان قيس بن الخطيم دار صادر بيروت ١٩٦٢ تحقيق د. ناصر الدين الأسد ص ٧٢

(١) ديوان عنترة دار الكتب العلمية بيروت د.ت ص ٥٧

(٢) ديوان عروة بن الورد دار صادر بيروت ١٩٦٤ ص ٨٦ ، ٨٧

obeikandi.com

(مردوخ) يصور والنار جزء منه تمجيداً له وتقديساً لذاته النارية ، وقد جاء في اللوح الأول من الأنوما إيليش ما نصه

عندما رآه أبوه خرج وامتلأ قلبه بهجة وحبورا

فكان أرفعهم مكانا وأسبقهم في كل شئ بفن بديع تشكلت أعضاؤه

لا تدركه الأفهام ولا يحيط به خيال تتوهج النيران كلما تحركت شفتاه ([٣٨٩])

حيث يجمع هذا الإله بين الجمـــال (رفعه المكـــان واتساق الأعضاء) واللطف (لا تدركهم الأفهام) ، والجلال الذي تخيله الإنسان الأول في النار التي تخرج من فيه ، وإذا كان الممدوح في المجتمع القديم يأخذ صورة البديل لمعبود المجتمع([٣٩٠]) فليس غريبا أن يوصف الممدوح في الشعر الجاهلي بنفس الصفات الإلهية السابقة

وتظهر في الشعر الجاهلي صور المدح بوصف الممدوح بأنه يدخل الحرب وهى مستعرة ، ولايهابها فيمدح زهير الحارث بن ورقاء قائلا :

لولا ابن ورقاء والمجد التليد له كانوا قليلاً فما عـــزوا ولا كثروا

المجد في غيرهم لولا مآثـرُه وصبره نفسه والحرب تَسْتعـرُ([٣٩١])

وأيضا يمدح دريد بن الصمة عبد الله بن جوعان قائلاً :

وَجَلْداً إذا الحرب مـــرت به يعين عليها بجذل الحَطَـــبْ([٣٩٢])

---

(٣) مغامرة العقل الأول فراس السواح ص ٤٨

(٤) راجع قصة الحضارة وول ديوارنت، ترجمة محمد بدران مجلد ١ حـ ٢ ص ١٥٩ .

(١) ديوان زهير ص ٢٣

(٢) ديوان دريد بن الصمة ص ٣٣

وكعب يمدح قوما بأنهم ليوث غابٍ عند وغى الحرب قائلاً :

فى معشرٍ فيهم قروم ســـادة ولبوث غاب حين تضطرمُ الوَغى

ويصولُ بالأبدانِ كلُ مسعــرٍ مثلُ الشهابِ إذا توقَّدَ بالعَضّى([٣٩٣])

وشجاعتهم تنجلي وتعرَف عندما تشتد الحرب فى ضراوتها مستخدما الفعل تضطرم وهو من أفعال النار. والأعشى يمدح قيس بن معد يكرب بأنه جاهل عندما تشب نار الحرب :

قَلِعَمْرِ مَنْ جَعَل الشهورَ علامــةً قدرا وبيَّن نصفَها وهلالهَــا

ما كنت فى الحرب العوان مغمّراً إذ شبَّ حرُّ وقودِها أَجْزالَهـا([٣٩٤])

وتتكرر الصورة عند امرئ القيس والمهلهل أخى كليب والخنساء، حيث يظهر الممدوح بقوته وجلده وشجاعته وهو يحش الحرب فى عنفها وخطرها مرتسمين لها صورة النار ليدللوا على قوة الممدوح وأحقيته فى البطولة([٣٩٥])

وعلى الوجه الآخر يوصف الإنسان الذي يظهر شجاعته بعد انطفاء الحرب وصفا " مذموما " إذ يكون فى الحرب مثل الثعلب، فيقول عروة بن الورد:

ثعالبُ فى الحربِ العَوَانِ فإنْ تَبُخْ وتَنْفَرِجْ الجُلَّى فإنَّهم الأُسْــدُ([٣٩٦])

---

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبى سعيد البكري ص ٢٢٣

(٤) ديوان الأعشى دار صادر بيروت د.ت ص ١٥٣

(٥) ديوان امرئ القيس الكندي ت محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٥٨ ص ١٠٤ ، ٢٧١- وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١٦٧

وراجع ديوان الخنساء طبعة المكتبة الثقافية بيروت د.ت ص ٤٠

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٢٦ " تبخ " أي تنطفئ

كذلك أبو الخطار الكلبي يذم من طاب له المأكل والمشرب بعد أن تخبو نار الحرب : فيقول :

وَقَيْناكُمُ حَرَّ القَنا بنفوسِنـــــا وليس لكمْ خيلٌ سِواناَ ولأرَحْلُ

فلما رأيتم واقِدَ الحربِ قدْ خَبَا وطابَ لكم منها المشارِبُ والأُكْلُ([٣٩٧])

وهنا يُعَيِّر أقواما بعدم مشاركتهم فى الحرب وقلة حيلتهم فيها، ويستنكف عليهم المأكل والمشرب، وفى هذا يستخدم صور النار بالألفاظ " واقد"، و " خبا " .

ومن هذا العرض تبدو صورة النار فى لوحات الحرب آكلة منتقمة بشكل واضح، ويستخدمها الشاعر فى غرض الفخر بدخول الحرب والاعتزاز بالصبر عليها ، بل ويجعل ذلك شرطا للنصر، ونيل الشرف والعزة كأنها طقس تعبدي لدى كل من يريد النصر. لا بد أن يجوز هذه النار المقدسة التي تشبه نيران المحارق على المذابح فى الفكر السامي القديم أو النار التي تأكل قربان الرجل الصالح فى التراث العبري والتي ظهر بها الرب فى عمود لبنى إسرائيل والتي هي عند العبريين الإله ربهم " نار آكلة " إله منتقم "،([٣٩٨]) بل كان يذم كل من يهرب فاراً منها ويتباطأ فى طلبها، وتتواتر هذه الصور فى الشعر الجاهلي بشكل نمطي، ربما يعاب عليه فى غياب الرؤية الأسطورية، فالحديث عن نار الحرب والاصطلاء

---

(٢) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام ص ٤٢ ، ٤٣

(٣) راجع الحيوان للجاحظ حـ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، وانظر سفر الخروج ١٤ : ٢٠ ، والتثنية ٤ " ٢٣ ، ٢٤ " ، وبلوغ الأرب حـ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٦٩ والأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١٤١ والفلكلور فى العهد القديم حـ ١ ص ٤٦، حـ ٢ ص٣٤٢ .

بها وخوض غمارها يظهر بمثابة مراسم لا بد من ترديدها بمعرض الحديث عن الحرب فى الحياة العملية ، حتى صار تقليداً

شائعاً عند عامة شعراء ما قبل الإسلام، فالشعر الجاهلي يصدر عن عقل جماعي، والشاعر الجاهلي كفنان يلتزم ويرتبط بحاجات المجتمع العليا، والشعر الجاهلي كله يوشك أن يكون على هذا النحو([٣٩٩]) الذي استوحاه الجاهلي من تراثه الثقافي العريق المتصل بديانات وأفكارها الأمم المجاورة ٠

ولا تخفى آلهة الساميين " نسكو "رسول" Sukkal" فى أرض الرافدين والإله مردوخ صاحب صور الدمار النارية، وفى سفر التثنية السومري إله النار المقدس " جيبل"([٤٠٠]) وتنتقم النار وتدمر الثلث الثاني من برج بابل ([٤٠١]) والساميون -كأصل للعرب-لا تخفى تأثيراتهم وبقاياهم الفكرية فى المنطقة العربية والشرق القديم عموما ، وإن كانت مظاهر هذه التأثيرات قد ضعفت قبيل الإسلام ، إلا أنها تُلمح من خلال هذه الظواهر الفنية المشار إليها، ولا يهمل دور الطبيعة العربية المساهم بشكل فعَّال فى رسم ملامح الشخصية العربية التي أنتجت شعراً رسم صورة حية لبيئة العرب وتأثيراتها على ساكنيها([٤٠٢])٠

وإذا تابعنا صورة النار فى الحرب لدى العربي القديم، وجدنا الحرب أخذت صور النار بشكل موثق، تحمل صفاتها وأفعالها فى شكل تركيبات إضافية مثل " سنا الحرب " ،

---

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠ مصطفى ناصف ص ٥٣

(٢) الحضارات السامية القديمة ص ١٣ ، ٨٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ هوامش فصل ٤ ، مغامرة العقل الأولى ص ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٧

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١١٩

(٤) أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلي ص ٥٢

وانظر الوسطية العربية د٠عبدالحميد إبراهيم حـ١ ص ٥١ ٠

" ونار الحرب " ، " ونور الحرب " " ولهيب الحرب " أو مع الضمير " سناها " ، " ونارها " ، و " نورها " ، " ولهيبها " وهكذا باسمها مباشرة أو بما يراد فيها ومثال ذلك قول عبيد بن الأبرص :

وإذا الخَيْلُ شَمَّرتْ فى سنا الحَرْبِ وصارَ العُبارُ فوق الـدُّؤابِ([٤٠٣])

وتكرر هذه الصورة بالأشكال التركيبية للحرب مع النار أو مترادفاتها عند كثير من الشعراء .

والحرب أيضا تسند إليها أفعال خاصة بالنار أو صفات منسوبة للنار، فعند دريد على سبيل المثال :

بمشعلةٍ تَدعُوْ هَوازِنُ قومَهـا نسج من الماذىِّ لأْمٌ مُرَمَّـلُ

لدَى مْعرَكٍ فيها تركنا سَرَائَهُم ينادون منهم مُوْثَقٌ ومُجَـدَّلُ([٤٠٤])

وهنا تشبه الخرب بالنار بهذه الصيغ التي تأخذ شكل المبالغة والتي توحد بين النار والحرب فى الذهن العربي، ويلاحظ ذلك من حذف أدوات التشبيه التقليدية ([٤٠٥])

والشاعر الجاهلي بعد ذلك وفى مواضع أخرى لم يترك التشبيه بأداته وطرفيه ليؤكد العلاقة القائمة بين الحرب والنار كشيئين مختلفين ليدعم الصورة الأسطورية لنار

---

(٥) مختارات شعراء العرب لابن الشجري ص ٤٣٩

(١) ديوان دريد بن الصمة ص ١٤٥

(٢) راجع تقييم مدرسة عبيد الشعر فى ضوء نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني جميل عبد المجيد دار حراء بالمنيا ص ٤١

الحرب ، والتي كانت توقد للحرب بشكل واقعي ليلة قيامهم واستعدادهم للحرب ، والتي يشير البعض إلى أنها مجازية ، متغافلين العلاقة الأسطورية بينها ٠

ويستخدم المهلهل هذا النموذج :

وسَقَيْتُ تَيْمَ اللاتِ كأساً مُـرَّةً كالنارِ شَبَّ وقودُها بِضِـرَامِ (٤٠٦)

وأيضا " المهلهل بن ربيعة : قائلا :

وقد عَلَتْهُم هَفوَةٌ هَبْـوةٌ ذاتُ هياجٍ كلهيبِ الحريـقِ (٤٠٧)

وعند جساس بن مرة لها وهج كالحريق :

تُسَعَّرُ نارُها وهجًا وجـاءتْ إذا حَمَدَتْ كَنيرانِ الفِصَـاحِ (٤٠٨)

وعند أوس بن حجر :

قَروهُمُ شهبَاءَ ملمومَـةً مثل حريقِ النَّارِ أو أضَرمَـا (٤٠٩)

ويصل الأمر إلى أشد من لظى سَقَر، أو أضرم من حريق النار عند دريد بن الصمة:

وعَنْ قَليلٍ يلاقى بَعْيَهُ وتَرىْ حَرْبًا أشدَّ عليه من لَظَى سَقَـرِ (٤١٠)

وهكذا تستعير الحرب من النار كل هذه المواصفات وتظهر فى الشعر الجاهلي كأنها النار بمحصول وافر من النصوص المتواترة فى أرجاء التراث الجاهلي، يصعب عرضها جميعا ، فهذه النار لها جذورها العميقة فى تاريخ العرب والبشرية جمعاء ، تحمل صورة القوة

---

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١٧٤

(٤) الجمهرة لأبى زيد القرشي دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٤٦١

(٥) شعراء النصرانية قبل الإسلام الأب لويس شيخو ص ٢٧٤

(٦) ديوان أوس بن حجر ص ١٦٣ ٠

(١) ديوان دريد بن الصمة ص ٩٩

(٢) مقدمة ابن خلدون المغربي ص ٢٧٠ ، ٢٧١

obeikandl.com

والقسوة وتعكس الرهبة والخوف والاحترام على نفس الإنسان ، لذا تمثلها الشاعر بهذا الكم وبذلك التنوع فى تصوير الحرب فى حياته مجسداً صورة النار فيها ليهدد بها ويحذّر منها ويفخر بقدراته فيها ٠

الحرب نار يشعلها فاعل

إذا كانت الحرب واقعا فى تركيب البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل ([٤١١]) فحياة العرب فى الجاهلية كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء ([٤١٢]) فهم دائما قاتلون مقتولون لا يفرغون من دم ، وقد أرجع بعض الباحثين ذلك لأسباب متعددة جعلت من ساكني الجزيرة العربية رجال حرب يرون فى الغزو والقتل والنهب قيما مقبولة ، وهذا لأسباب اقتصادية كالصراع على المراعى والمياه ، واجتماعية كعادات الثأر والحمية والعصبية القبلية ([٤١٣])٠

وقد ارجع البعض هذه الظواهر للطبيعة العربية التي كانت تتطلب الشجاعة والإقدام وركوب المخاطر ، والتجلد للمكاره والخطوب ، فلا بد فى هذا المجتمع من القوة لأنها السبيل الوحيد للحياة الكريمة([٤١٤])٠

لذا كانت مكانة الحرب فى نفس العربي كبيرة فهي – وكما سلف – تعد قوة جبارة تمثلت فى أعتى قوى الوجود إلا وهى النار ، وتبدو مشعلة متأججة تأكل كل شئ

---

(٣) تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي"د٠ شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٨ ص ٦٢

(٤) أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلي منذر الجبورى دار الشئون الثقافية ص ٥٢

(٥) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د٠يحيى الجبورى مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣ ص٦٤ ، ٦٥، وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه حـ١ ص ١٠٥

أتت عليه وتضرس الناس بأنيابها العُصل ويجن لها ويهر منها كثير من الناس إلا من أوتى قوة وجلدا ، لذا امتدح كل من زاد عن حوضه بسلاحه ، وفى الجزئية التالية سيعرض البحث صورة الممدوح وهو يشعل الحرب بيده كالذي يشعل فتيل النار ويزكّيها حتى تحرق أعداءه فيظل العربي مادحًا بذلك ومفتخرًا ٠ بصورة واضحة فى شعره مجسدا لنا صورة النار فى الحرب ، التي كانت أبلغ تعبير فني عن التركيبة العربية ذات الأصول الثقافية والدينية العميقة والمتأثرة بطبيعة الجزيرة العاتية ٠

وبعض الصور السابقة للنار فى الحرب جاءت أغلبها موقدة وملتهبة دون ظهور الإنسان – " الفاعل "فى هذه الصور كمشعل لها ، وهذه الصور أقرب للشكل الأسطوري لصور النار المعبودة المقدسة التي لا دخل للإنسان فيها وهى النار الأولى أو نار السماء التي دمرت بها سدوم وعمورة فى نوبة غضب يهوه ٠([٤١٥])

والإنسان يتداخل رويدا في صور نار الحرب ، وهو يوقدها ويضرمها مجهولا – بفعل أُسند إلى فاعل مجهول – ثم تبرز صورته معلوما بين الجميع إما مفتخراً فى معرض حديثه عن نفسه ، وهو يشعل نار الحرب على خصومه وإما مادحا فى معرض حديثه عن غيره أيضا يبعث نار الحرب عند غضبه ٠

فعند عنترة النار توقد " تضرم" فى الحرب بفاعل مجهول فيقول :

وَلاْ عَيْبُ عَلَىَّ وَلا مَـــلامُ إذَا أصلحتُ حَالِي بالفْســادِ

فإنَّ النَّارَ تُضرَمُ فِي جمَــادِ إذَا مَا الصَّخْرُ كَرَّ عَلَى الزِّنَادِ ([٤١٦])

(1) الأسطورة والوعي، عصام الدين حنفي ناصف ص ٥٩

(2) ديوان عنترة بن شداد ص ٤٢

ويلاحظ هنا أن " جماد " من غير الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال .

وهى عند المهلهل أخى كليب توقد بعد كليب بدون ذكر من يوقدها أيضا فى إحدى مرثياته لكليب : ـ

نُبِّئتُ أنَّ النـارَ بَعْدَكَ أُوْقِدَتْ واستَبَّ بعـدَك ياكُلَيْبٌ المجلِسُ (٤١٧)

وهنا يتحسر على كليب الذي بموته اشتعلت الحروب وتشاتم الناس فى المجلس ، ويقترب الفاعل من البشر فى عملية إشعال نار الحرب قليلا فيظهر مشعلوها دون ذكر أسمائهم ، أو صفاتهم عند الخنساء وهى ترثى صخرا قائلة :

وَأَذْكُره إذَا مـا الأَرْضُ أَمَستْ هَجُولا لَمْ تُلمَّعْ بالوَمِيـْضِ

فِمَن لِلحَربِ إذ صَارَتْ كَلُوحا وَشمَّرَ مُشعِلُوهَا للنَّهُـوضِ (٤١٨)

ويظهر الفاعل موقدا للنار في صور الشعر متمثلا في البطل سواء أكان المتكلم مفتخرا بنفسه وبقوته ، من خلال قدراته على إشعال نار الحرب المنتقمة ، أو مادحاً لغيره بنفس القدرات ، وهذه القدرة على إشعال النار لم تكن جديدة لدى الجاهليين ولكنها متوارثة من أجيال قديمة ، فهذه القدرة كانت لدى آلهة قديمة لدى الساميين مثل " نسكو " ، ومردوخ " ، " جيبيل " وهم يشعلون النار في وجه من يكرهون وفى سفر التنين السومري يتوعد الإله " جيبيل " المقدس في عصى يستلهم صورة النار المنتقمة فيقول :

سأرميـــه بالحربـةِ الطويـــــلةِ

وسأوجه ضِـــدَّه كَلَّ أســـــلحتي

(١) شعراء النصرانية لويس شيخو ص ١٧٤

(٢) ديوان الخنساء ص ٨٤

وبالغابات المحيطة بـــه سأضرم النـــار

وفى (...) سوف أغرس فأسى البرونزي([٤١٩])

وتتواتر هذه الصورة في الشعر الجاهلي بشكل لافت عند كثير من الشعراء ، فعبيد بن الأبرص يوقدها للظالم المصطلي بها ([٤٢٠]) وفى موضع آخر يحميها إذا بردت ، وقيس بن الخطيم يشعلها([٤٢١]) والمهلهل أخو
كليب يهيجها حينا([٤٢٢]) ويشبها عامر بن الطفيل مُسعَّرة ([٤٢٣]) وعبيد بن الأبرص يشبها ناراً في يوم شديد([٤٢٤]) والسموأل يؤججها ([٤٢٥]) وهذه النماذج تظهر فيها صورة الشاعر وهو يفتخر بقدراته على إيقاد وإحماء وتزكية هذه النار التي كان يرى فيها شفاء لما في نفسه من هموم وآلام ، وجلاء لما يحيط به من قيود ومشاكل .

وقد ورث العربي هذه الانطباعات من قبل فكانت النار شفاء لكثير من متاعبه النفسية ، وبخاصة نار الحرب التي تعادل النار التي يتداوى بها من الأمراض العضوية وهو ما يسمى لديهم " بالتداوى بالكي " ([٤٢٦])

---

(٣) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٧٤. (...) أجزاء ساقطة من النص على اللوحة .

(٤) راجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ٦٧

(٥) ديوان عنترة ص ٢١ ، وراجع ديوان دريد بن الصمة ص ٩٨ ، ٩٩

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ص ٨١ ، شعراء النصرانية ص ١٤٧ .

١- نفسه ص ٢٥ وراجع الجمهرة ص ٤٦٢

٢- ديوان عنترة ص ٣١

٣- ديوان عامر بن الطفيل ص ٥٧

٤- ديوان عبيد بن أبرص ص ٢٤ وانظر مختارات شعراء العرب ص ٤٠٠

٥- راجع مقدمة بن خلدون ص ٢١٤

وتاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٨٤

وفى النصوص الأوجاريتية الكنعانية، تدخل النار في عمليات طقوس الخصوبة والنماء في شكل قتالي مما يعطى نار الحرب شكلاً نفعياً لا يقتصر على شفاء الغليل فحسب بل يمتد إلى أنها طقس خصوبى منه تولد الخصوبة فى حقل الحياة وتهنأ به الكائنات وتتغنى به العصافير : تقول ملحمة الإله بعل والإلهة عنت ، وهى من أهم القصائد الأوجارتية :

تقترب منه عنت العذراء

وكما يهفو قلب البقرة إلى بعلها ، وقلب الشاة إلى حملها

كذلك يهفو قلب عنت إلى بعل

وتمسك بموت ابن أل وبالسيف تشقه ، والمذراة تذروه

وبالنار تحرقه ، وبالرصاص تطحنه ، وفى الحقل تبذره

فتأكلُ قِطَعةُ الطيور ([٤٢٧])

٦- الحضارات السامية القديمة – سبتينوموسكاتى ص ١٣٠

obeikandl.com

وقد اقترب الدكتور مصطفى ناصف من نفس الفكرة حينما رأى في صورة نار الحرب على نحور الخيول أنها ميلاد في حلم جديد تمثل الدم

في بيت بشر بن أبى خازم :

نَعْلُو القَوَاْ نِسَ بالسُّيوفِ وَنَعْتَرِى وَالخيْلُ مُشعَلةُ النُّحِورِ مِنَ الدَّمِ (٤٢٨)

هذا الميلاد هو ميلاد السلام والاستقرار٠

وليس سبيل إلى السلام المتمثل في النور إلا إذا سال الدم الذي يسقط على نحور الخيول في المعركة ويقول : " وحينما يسيل الدم يقترب الخيل من منازل الآلة

" تضئ " للناس السبيل فقد عقد بشر وغيره صلة قوية بين الدم والضوء وهذه الصلة تعنى بعبارة أخرى: تمثل حلم الولادة الجديدة التي يُعد الخضاب جزءا من طقوسها"(٤٢٩)

وقد تحدث الشاعر الجاهلي عن الحرب مجسدا لهذه النار التي كانت تمثل له دواء لدائه العضال وميلاد حياة ثرية بالأمان المحفوف بالكرامة والهيبة بين عشائر البادية، مهما كلفه الثمن من دماء، في حين هي شؤم على الخصم ٠ فعبيد بن الأبرص يقول : إنهم يشبونها للرباب ودارم فتنعب الغربان في ديارهم شؤما:

وَلقَد شَبَبنَا لِلرَّبـــــابِ وَدَارِمٍ نَارًا بِهَا الطَّيرُ الاَشَائِمُ تَنْعبُ (٤٣٠)

ورغم تصريحه في البيت بأن الشؤم يلحق بموضع هذه النار، إلا انه يفخر بها، فالنار كانت عملة لها وجهان في وقت واحد، فهي خير لقوم وشؤم وضياع لقوم آخرين ٠

---

(١) الجمهرة لأبى زيد القرشي قصيدة بشر ص ٤٠١

(٢) قراءة ثمانية لشعرنا القديم د٠مصطفى ناصف ص ٨٥

(٣) مختارات شعراء العرب لابن الشجري دار التوفيقية ١٩٧٩ مصر ص ٤١٦

وعوف بن عطية يرى فيها منهلا كمنهل الماء عند افتخاره ببني عوف وصنيعهم في الحرب قائلاً :

فَلَولاَ عــلاَلَةٌ أَمْــرَا سِنَــا لَزَاْدُكمٌ القَوْمٌ خِزْياً وَعَــارًا

إِذَا مَا اجْتَبَيْنَا حَبَيْ مَنهَــــل شببناَ لِحَرْب بِعَلْيَــاءَ نَارًا (٤٣١)

والملاحظ أن النار والحرب متعانقتان في هذه الفكرة – فكرة التطهير والشفاء – وكلتاهما تمثل عنصرا مقدسا يبرد الغليل ويذهب الغيظ فالحرب كانت في نظر الشاعر الجاهلي خالية من الدنس أو الإثم فهي " الماء الذي يطهر الإنسان " تلك هي فلسفة الحرب (٤٣٢) والنار أيضاً هي وسيلة طبيعية للتطهير يعدها أغلب الهمجيين دفاعاً ضد الأرواح الشريرة ، وقد كانت تمثل الاغتسال من الشر(٤٣٣)

لذا حفل الشعر الجاهلي بمدح من يوقد نار الحرب عند الشر فيقول سويد :

صَاحِبُ المئرةِ لا يَسأمُهَــــا يُوقِدُ النَّارَ إِذَا الشَّرُّ سَطَــعْ (٤٣٤)

ويُمدح من يضرمها : عند سلامة بن جندل :

لَمَّا رَأو أَنَّها نـارٌ يُضرمُهَــــا مِن آلِ سَعدِ بِنِي البِيضِ المَنَاجِيبِ(٤٣٥)

---

(٤) المفضيات للمفضل الضبي تحقيق عبدالسلام هارون ، وأحمد شاكر دار المعارف مصر ١٩٨٣ ص ٤١٥

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم د ٠ مصطفى ناصف ص ١١٣

(٢) - ency of religion and ethers - vol " 6 " p " 30 "

(٣) المفضليات ص ١٩٨

وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو، شعر سويد بن كاهل ص ٤٣٢

(٤) نفسه شعر سلامة بن جندل ص ٤٩٠

وتعددت مواضع مدح من يسعر الحرب أو يسعر لها حتى سمى المسعار على صيغ المبالغة ، ومنها وردت المساعير، وكانت هذه أسماء تُطلق تشريفا وتعظيما لمن يوصف بها ، وقد ورد اسم شاعر بالأصمعيات وهو " الأسعر الجعفى "([٤٣٦]) ونكاد هنا أن نمس موضوع التسمية بالنار، وهو ما سيعرض له البحث بعد حين في موضع خاص ٠

وإذا تتبعنا صور المدح لمن يسعر النار نرى النابغة يقول :

قَد حَلَّت الحَربُ عنه فهو يُسَعِرهَا كَالِهندوانى حَلَّى حدّة الأدمُ ([٤٣٧])

وتقول الخنساء مادحة صخراً بنفس الخصال أيضاً :

خلدُ جَمِيلُ الْمُحَيَّا كاْمِلٌ وَرِعٌ وَللحُرُبِ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِسعَارُ

وَإنّ صَخراً لَتأتُم الهُـــدَاةُ بِهِ كَأنَّهُ عَلَمُ فِي رأسِـهِ نَـــارُ ([٤٣٨])

ويقول الأعشى مادحاً قيس بن معد وهو يسعر نار الحرب :

تلاَقينَ قَيسـاً وأشيْاعَـــةُ يُسَـعّرُللحَرْبِ نَاراً فَنَـارَا ([٤٣٩])

والنابغة يصف القوم أيضاً بأنهم " مساعير " يُهيجُّون نار الحرب ويُضرمونها :

شُعت عَلَيهَا مَسَـاْعِيْرلِحَربِهِمُ شُمّ العَرَانين مِن مُردٍ وَمِن شِيَبِ([٤٤٠])

---

(٥) الأصمعيات ص ١٦٢

(٦) ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٩٦ ٠

(١) ديوان الخنساء ط ١ المكتبة الثقافية د٠ ت ص ٤٥

(٢) ديوان الأعشى دار بيروت د٠ت ص ٨٢

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٥١

(٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، للأعلم الشنتمرى، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١حـ٢ ١٥٤

ولا يفوت الشاعر الألفاظ التي تستخدم لأفعال تصنع مع النار لإزكائها وتقويتها فيظهر عنترة الممدوح وهو يشب نار الحرب فيقول :

وَإِنْ تِك حَربُكُمْ أَمْسَت عَوَانًـا فَإِني لَمْ أَكُن مِمَّن جَنَاهـَـا

وَلَكِنْ وِلْدُ سورةَ أَرَّ ثُوهـَـا وشبُّوا نَارها لِمَن اصْطَلاَهـَـا(٤٤١)

وقد ورد هنا فعلان "اصطلاها"، "وشبوا" وشب من أفعال النار، وهو يعنى شدة ارتفاعها واشتباكها في وقودها، وهو نتيجة مشروطة لمن اصطلاها وطلبها فكأن الثاني شرط الأول ، فنار الحرب هنا دفاعية لا توقد إلا لمن اصطلاها لذا فالشاعر يمدحهم بهذه النار التي ليس فيها ظلم ولا افتراء ، ولكنها لرد من طلبها ويقول خداش بن زهير العامري :

حُماة يشبُون الحُرُوْبَ وَسَـادَةٌ يَجُرُّ عَلِيهِمْ آخَرُوْنَ الجْرَائِـرَ (٤٤٢)

وعلى هذه الشاكلة ترد نار الحرب عند كثير من الشعراء بشكل متكرر ، فعند الأعشى يورى الممدوح النار ويقدح لها في الحرب كالقادح للزناد (٤٤٣)

وعند زهير : الممدوحون يخشون بأدواتهـا وكأنها أدوات إيقاد النار وحشهـا "المشرفى" : وهو السيف والقنا " وهو الرمح (٤٤٤)

والملاحظ في هذا العرض السريع على سبيل المثال في منظومة المدح الجاهلية، أن ألفاظ المدح تحمل أفعالا تعنى في مجملها تدخل الممدوح في خلق وتدعيم وتزكية الحرب ، وكأنها نار ذات وجه شرير ويمثل في ذات الوقت تطهرا وشفاءً لنفسية العربي في مواقفه

---

(٥) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق محمود شاكر ص ١١٠

(١) ديوان الأعشى دار صادر بيروت د٠ ت ص ٤٠

(٢) ديوان زهير دار صادر ص ٨٢

وانظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٦٩

مع عدوه ، فنلاحظ الألفاظ : " يوقد – يضرمها – يسعرها – مسعار – مساعير – شب – يشبون – بوري – يقدح " كلها تجسد النار في صورة الحرب التي تأكل الأعداء وتطحنهم طحنا فتريح الشاعر منهم وتشفى غليله ٠

والحرب كما أنها توقد كالنار هي أيضاً تطفأ مثلها بأفعال مشابهة للأفعال التي تطفأ بها النار، فمثلما يوقدها الشاعر ويرسلها في الحرب على خصومه، هو نفسه يخمدها ويطفئها أيضا بسلاحه، كأن هذه النار في الحرب قوة سحرية لا يتغلب عليها إلا بقوة سحرية من جنسها يقول عروة :

وَلَرُبَّ مُشعَلَة يُشَبُّ وَقُودُهَـــا أطْفَأتُ حَرَّ رِماحِها بِرِمَاحِـيْ (٤٤٥)

والملاحظ هنا أن الحرب مشعلة بشكل صريح ووقودها يشب بفعل مضارع مستمر في حينه ، ولكن كيف سيطر الشاعر عليها وأبطل مفعولها ؟ بفعل يستخدم أيضا لإبطال مفعول النار وهو " أطفأ " وأطفأت " حر رماحها " وبنفس النوعية التي استخدمت لإيقادها وإشعالها وهى الرماح " برماحي " فهي شبه النار في اشتعالها وأثرها وأيضاً في إنطفائها والتغلب عليها ٠

وحاتم الطائي يطفئ نار الحرب بالأسياف وهى أيضا سلاح يستخدم لإيقاد نار الحرب في مواضع أخرى فيقول :

وَغَمرَةِ مَوْت لَيْسَ فيها هَـوادَةٌ يَكُونُ صُدورُ المشْرفيِّ جُسُورُهَا

صَبرنا لها فى نهْكِهَا وَمصَامِّهَـا بأسيافِنا حتَّى يَبُوحَ سَعِيرُهَـا(١)

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٨٦ ، ٨٧ ٠

فكانت أداة الصبر لديهم الأسياف في أيديهم يبدون مسيطرين على الحرب محجمين لها حتى يبوخ سعيرها وهذه صورة تشابه صورة الإطفاء بالرمح السابقة ٠

وتتكرر صور الفارس الذي يطفئ نار الحرب هو، كما أشعلها وبسلاحه وبشكل متكرر في الشعر الجاهلي، فعنترة يطفئ حر لهيبها المتوقد ([٤٤٦]) وعبيد بن الأبرص يطفئها بعد شبوبها ([٤٤٧]) والمهلهل أخو كليب يُهيِّجها حينا ويطفئها حينا آخر([٤٤٨]) ٠

فالحرب عندهم لعنة ترسل على الخصوم بحرابها كاللعنات السحرية، في شكل طلسم ولا يرد مفعولها إلا طلسم من نفس جنسها، وهو الفارس الذي يرد نفس اللعنة بسلاحه ٠ فيطفئ نارها التي يستبعد أن تكون نارا حقيقية ٠

إذن يرد السؤال : هل نار الحرب نار حقيقية أم نار مجازية؟؟ وما سر هذا التواتر والتكرار بشكل نمطي في رسم صورة الحرب باستخدام النار وخواصها وأفعالها ؟

لم يرد أن العرب كانت تتعامل مع نار الحرب كنار حقيقية، بل يثبت العكس ما أورده الدكتور جواد على من أنهم كانوا إذا أرادوا إطفاء نار الحرب ، أخرجوا النساء فبلن بين الصفين يرون أن ذلك

يطفئ نار الحرب ويقودهم إلى السلم ([٤٤٩])

وجساس بن مرة يوجه الرؤية العربية لنار الحرب وجهة دينية ذات مغزى روحي ونفسي فيقول :

---

(٢) ديوان عنترة بن شداد ص ٥٧

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٧٦

(٤) شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو شعر المهلهل أخو كليب ص ١٦٧ ٠

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠ جواد على حـ ٦ ص ٨١٢

تسَعّر نَارهَا وَهجَاً وَجَــاءَتْ إذَا حَمدَتْ كَنِيرانِ الفِصَــاْحِ ([٤٥٠])

ولا تخفى مكانة نار الفصاح الروحية لدى أهل الجزيرة من النصارى ٠

ويستبعد أيضا أن تكون نار الحرب عند العرب ، ناراً " مجازية" فقد عرض الدكتور جواد على للنيران المجازية لدى العرب وذكر نار الحب ، ونار المعدة ، ونار الحمى ، ونار الشوق ، ولم يذكر نار الحرب من النيران المجازية ، بل عرضها بين ما قصدوه من نيران العرب وأن للعرب أربع عشرة ناراً منها نار الحرب([٤٥١]) وقد ذكرت نار الحرب التي كانت العرب توقدها عند الاستنفار للحرب في أكثر كتب الأدب([٤٥٢]) وهذه لا تتعدى صورة الإعلان للحرب كدق الطبول مثلاً ، وإذا كانت نار ليست بالحقيقة ، وأيضاً " ليست بالمجازية ، إذن نستنتج أن النار كان لها مدلول آخر يأخذ الشكل الطقوسى الديني، وكان هو السر وراء هذا التكرار الذي عده البعض تقليداً " شكلياً " في استخدامات صور الشعر الجاهلي ، فنار الحرب تمت إلى الحقيقة كراسب من رواسب المعتقدات القديمة، وأيضا تمت إلى الخيال الأسطوري بصلة ما، ورغم ذلك فهي في مستوى ثالث بين الحقيقة والخيال، وهو المستوى الأسطورى٠

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو شعر حساس بن مرة ص ٢٤٧

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٦ ص ٧٠١

(٤) راجع خزانة الأدب حـ ٧ ص ١٤٨ : ١٥٠ ، الحيوان حـ٥ ص ١٧١ ، ١٧٢ ، صبح الأعشى حـ ١ ص ٤٠٩ ، بلوغ الأرب حـ ٢ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨٨ الكشكول ص ٣٨ ، ٨٥ ٠

هذا المدلول هو الشكل الأسطوري لصورة النار، النار المقدسة التي كانت تنتقم من الظالم واتخذ ذكرها في لوحة الحرب بمثابة ترنيمة أو لازمة مقدسة لا بد من ترديدها كتعويذة عند حديثه عن الحرب ٠

وإلا فكيف يقلد الشعراء الجاهليون بعضهم بعضا بهذا الكم وبذلك الكيف ؟

وكما يتساءل الدكتور مصطفى ناصف ؟ كيف أصبح هذا التقليد مستساغا؟ ما الفكرة التي تقع وراء هذا التقليد ؟؟ ([٤٥٣])

والإجابة عن هذا التساؤل تحتاج الرجوع إلى كتب التاريخ والأخبار، والأساطير، والديانات القديمة ومحاولة رصد العلاقة بين معالم الموروث القديم وانعكاساته الفنية على تراث الجاهليين الشعري حتى يمكن كشف الغموض عن كثير من الظواهر الفنية والحكم على هذا التراث بمعايير نقدية حديثة بدلا من اتهاماته والهجوم عليه ٠

صورة النار في وصف السلاح

وللنار مع السلاح قصة في لوحة الحرب الجاهلية، حيث تشكل النار عنصراً أساسيا في وصف السلاح في شعر الجاهليين بشكل يدعو إلى التساؤل، إذ تأخذ هذه الدلالة الطبيعية للنار بما تحمل من عنف وتدمير وشكل يوحى بالرهبة، ولا بد من وجود أصول ميثولوجية قديمة تحمل نفس الدلالة، وتعكس الترابط بين النار والسلاح حيث يبدو السلاح كلعنات يرسلها الشاعر على أعدائه محملة بالنار كإله أو صورة من الإله المنتقم ٠

فالسهم كالطلق من النجم وهو كمصباح العزيز، وكجمر الغضا، والسيف كالقبس المتلهب أو كلمع البرق، أو كالنجوم استقلت أو كتلماع الغمام أو كأنه الشهاب، والرماح مثل نبراس النهامى، أو كاللهب الشاعل، وكلهبان جمر، أو كالشهاب الشاعل، أو

١- راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠مصطفى ناصف ص ٥٤

كالشهاب بدا في ظلمة الليل أو نجوم ليل أسود، وكالنار بالليل ، وهذا التكرار والتواتر لصور النار بشكل متشابه نستطيع أن نرده إلى الأصول الميثولوجية القديمة : فدائرة المعارف البريطانية تذكر تحت عنوان

The original uses of fire" **الاستخدامات الأولية للنار** " :

" تعلم الإنسان البدائي كيف يشعل النار ، وكيف يستفيد منها فإنهم عرفوا النار ليس فقط كحامية من البرد وكأداة للطهي ولكن أيضاً " في الصيد والحرب " [٤٥٤] ،فالإنسان البدائي إذن استخدم النار كسلاح في

الحرب والصيد ، وتراكم ذلك في ذهن البشر حتى أشار الشاعر الجاهلي بشكل رمزي عن هذه الفكرة وقوى الهيولى تظهر في شكل مخلوقات نارية تخرج النار من أفواهها ، وبحيرات لهب في حماية أبواب العالم السفلى ([٤٥٥]) وفى سفر التكوين البابلي اللوح الرابع يستخدم الإله مردوخ أسلحة نارية في القضاء على تعامة ([٤٥٦]) والإله " أتو" يتقبل قربان جلحامش ويهبه أبناء عظام يتقوى بهم ، ومنهم النار والبرق ([٤٥٧]) ٠

وقد عرض سبتينوموسكاتى للرسوم البارزة في أرض الرافدين والتي تشبه مثيلاتها في العصور الوسطى فكان المهاجمون يستعملون الأقواس والسهام ويقذفون المهاجمين الآخرين بالنار والسوائل الملتهبة ([٤٥٨])، فالرب يشعل في طرف المحلة عندما يغضب من

٢- The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 788"

(١) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك ترجمة أحمد صليحة ص ١٦١

(٢) مغامرة العقل الأولى ص ٤٣ ، ٥٧، وراجع الحضارات السامية القديمة ص ٨٣ ، ٨٤

(٣) نفسه ص ١٧٧ ٠

(٤) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ١٠٣

بني إسرائيل ([٤٥٩]) وهذا الرمزالنارى للحرب وأدواتها عند المصريين والبابليين واليهود ، وكذلك العرب ، أخذ صفة الشيوع والشمول بين طوائف البشر فلغة الرمز هي اللغة الشائعة والمتطورة للجنس البشرى ، فكل إنسان يشترك في الملامح الأساسية للكمال الجسدي والعقلي مع باقي الخليقة ([٤٦٠]) وهذا التشابه في الرموز يظهر – تلقائياً – في خطوط متوازية في أنحاء العالم المختلفة دون أن يكون الفرد قد عاناها أو مرت في خبرته ٠ ودون احتمال الانتقال أو التوزيع ، وهذا التشابه في الرموز الأسطورية والأحلام كما يبدو في عصور متباعدة وبين شعوب متفرقة، هو أكبر دليل – عند يونج – على وجود اللاشعور الجمعي ([٤٦١]) وهذا اللاشعور الجمعي قد تسرب إلى كثير من صور الشعر القديم، وقد رد الدكتور على البطل هذا التشابه والتكرار إلى تقاليد فنية ذات صلة وثيقة بممارسات دينية موغلة في القدم ([٤٦٢])٠

وإذا تناولنا ظاهرة النار المتمثلة في السلاح لوحة الحرب نجد تكرارا عريضا أوْكَلَه البعض إلى التقليد الشكلي قائلاً: وهذا التقليد يفسر لنا اتحاد المعاني والصور والتشبيهات ، ومعالجة الموضوعات عند الشعراء الجاهليين حتى إذا استطاع شاعر أن يبتدع في إخراج صورة من الصور أو تشبيه من التشبيهات أخذه الشعراء الآخرون فاستخدموه وتداولوه ، ونسجوا على منواله ([٤٦٣]) وقد استند هذا الرأي إلى قول كعب :

---

(٥) الكتاب المقدس سفر العدد ١١ : ١

(٦) The forgotten language An introduction to understanding of drams Fuirytale and myths p " 25"

(٧) الصورة الأدبية د٠ مصطفى ناصف ص ٨٧٤

(٨) الصورة في الشعر العربي د٠ على البطل ص ١٤ ، ٩٧ ، وراجع الشعر الجاهلي قضاياه الفنية د٠ إبراهيم عبد الرحمن ص ٧١

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي د٠ نور حمودى القيسي مكتبة النهضة العربية – بيروت ١٩٨٤

مَاَ أرانَا نَقولُ إلا رجَيعـــا أَو مَعَادا مِنْ قَولِنا مَكْـــرُوَرا

وقد أهمل الدكتور بذلك الجانب الطقسي والأسطوري المعترف بوجوده عند الجاهليين، وإلا فما الفرق بين تقليد الجاهليين بعضهم بعضًا والتقليد في المراحل التالية؟ ولماذا لم يرق تقليد اللاحقين بعد هذا العصر إلى مستوى تقليد الجاهليين بعضهم بعضا؟؟!

فلماذا يُرى التقليد في العصر الجاهلي مستساغا، وفى العصور التالية ركيكا مبتذلا؟ أظن أن السبب راجع إلى تفريغ الصور الشعرية بعد الإسلام من مضمونها الأسطورى والسحري، الذي كان يمدها بمذاق ونكهة خاصة لا تنتهى عند إدراك أطراف التشبيه أو الكشف عن الاستعارة أو الكناية أو المجاز والتورية، لقد استمدت الصور الشعرية قبل الإسلام خصوبتها وبكارتها- رغم تكرارها- من أصولها الدينية والأسطورية التي كانت بمثابة اللاشعور الجمعي الذي يقول عنه الدكتور مصطفى ناصف:" فإذا تذكرنا مدلول اللاشعور الجمعي بدا أمامنا التكرار محتاجا إلى تفسير([٤٦٤])

ولننظر إلى تشبيه الحرب " الأسلحة " بالصور النارية ، فالسهام عند الشماخ بن ضرار كأن توقدها فى الصياح تَوَقد نيران العرفج بقوله :

تواصى بها العِكْراشُ في كلِّ مَشرَب وَكَعبُ بِنُ سَعْد فِي الجَدِيلِ المُضْرَّجِ

بزرق النواصي مُرهَفَات كأنَّمَـــا تَوقُّدُها في الصُبْحِ نِيْرَانُ عَرْفَـجِ([٤٦٥])

ص٢٣١ ، ٢٣٢

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠ مصطفى ناصف ص ٥٤

(٣) ديوان الشماخ بن ضرار الزبيانى ٠ تحقيق صلاح الدين الهادي ٠ دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ٩٥ ٠

فالسهام كالنيران في سرعة التهابها ولون بريقها وهى منطلقة من العكراش بن رؤيب وكعب بن سعد وهما من الرماة المهرة، وأراد الشاعر أن يؤكد على التشابه بين السهام ولون العرفج المشتعل شديد الحمرة بإيقادها في الصباح ٠ فحدد زمن توقد هذه النيران التي تشبهها السهام فقال توقدها في الصبح ".

والسهام أيضاً عند أوس بن حجر كجمر الغضا فيقول :

تخيرن أنضاء وركَّبْن أنصلا كجمرِ الغَضَا في يومِ ريحٍ تزيلا (٤٦٦)

فنار التهابها وحمرتها وشدة حرارتها وتأثيرها على من ضرب بها ، ومما يدل على شدة التهابها هنا هو التقيد الذي قيد به أوس المشبه به " جمر الغضا" حيث قيده " في يوم ريح " وأثر الريح في شدة اتقاد الجمر معروف ٠

وتتكرر الصورة عند أوس أيضاً فيقول :

وَإنيٌ امرؤ أَعْدَدْتُ لِلحَرْبِ بَعْدَمَا رأيتُ لها نَاباً مِنَ الشَّر أَعصَلا

أَصمٍّ رَدِيَنِّيا كَأن كُعُوبَهُ نَوَى القسبِ عَرَّاصًا مزجًّا منصَّلا

عَلِيه كَمِصْبَاحِ العَزِيزِ يَشُبُّهُ لِفِصْح وَيْحُشوْه الزبَالَ المُفَتَّلا

وَأَمْلَسَ صُوليا كَنَهْيِ قَرَارَةٍ أحَسَّ بِقَاعِ لَفْحَ رِيْح فَأَجْفَلا

كَأَنَّ قُرُونَ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طَلْقا مِنْ النجم أَعْزَلاَ

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٩

تردد فِيْهِ ضَوُوءهَا وَشُعَاعُهَـــا فَأَحْسِنْ وَأَزِينْ بامْرِىء إِنْ تَزَيَّـلاَ([٤٦٧])

وصورة السهام هنا تتطور عند أوس فهو أعدها للحرب إعدادا خاصا بعد أن أدرك ورأى خطورتها " نابا من الشر أعصلا" وعدد أوس في مواصفات هذا السهم فعليه من الضوء مثل ضوء مصباح العزيز ، وهو كالطلق من النجم يتلاقى مع قرون الشمس " أشعة الشمس " ، وتتردد فيه أضواء الشمس وأشعتها وكأنه أيضاً " مرآة تعكس ضوء الشمس رغم أنه في ذاته كمصباح العزيز ٠

ويلاحظ هنا أن سهام أوس اتخذت شكل النار، ولكن ليست نارا عادية ، وإنما هي نار مختلفة هي من جنس النار المقدسة مثل نار مصباح العزيز حينما يوقد في عيد الفصح أي ليس في ظروفه العادية ، والنار المقدسة عند المسيحيين واليهود في أعيادهم وعند مذابحهم " المحارق " لها دور لا يغفل في العقيدة الدينية ، ولعل أوس صدرت منه هذه الصورة النابعة عن التراث المسيحي لاتصاله بالمسيحية وتدينه بها ، فقد عده لويس شيخو من شعراء النصرانية قبل الإسلام ([٤٦٨]) وقد أشاد الدكتور طه حسين والدكتور على البطل بالتفصيل في هذا التشبيه ([٤٦٩]) ٠

والسهام من توقُّدِها تلمع عند البراق بن ربيعة فيقول :

أَقُولُ لِنَفْسِي مَرَّةً بَعْـــدَ مَرَّةٍ وُسُمرُ القنَـا فِي الحَيِّ لاَشَكَّ تَلُمَعُ ([٤٧٠])

---

(٢) نفسه ص ٨٣ ، ٨٤

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام ص ٤٩٥

(٢) راجع في الأدب الجاهلي د٠ طه حسين م ص ٢٧٧

، والصورة فى الشعر العربي د ٠ على البطل ص ١٦١ ٠

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١٤٢

وهنا تتضاءل " الصورة النارية للسهم ولكن فيها إشارات نارية وهى لمعان السهم ، وتنتقل العلاقة بين السهم والنار، وسر قوة السهم الموكولة للنار، والشاعر يصف السهم في المعركة مستعيدا أطوار صناعته منذ أن كان يصاغ على النار موضحـــا

" أن النار هي العامل الأساسي في تشكيل هذا السهم وجودته " : ـ

وَأَصْفَرَ مَضْبُوح نَظَرْتُ حَوارَهُ عَلَى النَّارِ واسْتَوْدَعتُه كَفَّ مُجْمِدِ (٤٧١)

فهو يتخيل رجوع هذا السهم وعرضه على النار التي غيرته وهو في يد " للمجمد وهو " الحداد " وكأن هذه النار التي شكلت السهم ، قد اختزنت فيه وظلت كامنة ، حتى جاء وقت المعركة ، والإطلاق فأخرج السهم قوته النارية الكامنة ٠

والسيوف أيضا لها دور مع النار، فقد رسمها الشاعر الجاهلي بصور نارية بشكل يدعو للتأمل والتدقيق والتأني في القراءة، فعلاقة السيف بالنار ليست مبتدعة " لدى الشاعر الجاهلي ، ولكن لها جذورها

العميقة فقاموس الرموز والخيال يشير إلى هذه العلاقة بشكل مباشر، فالسيف يشارك النار في طبيعتها وتدميرها وطاقتها (٤٧٢) فالسيف كالوقد أو كالقبس الملتهب أو كالنجم والشهاب أو كلمع البرق ، وكل هذه صور نارية لها دلالتها في وصف السيف بالذات يدل على أن السيف الذي يعنيه الشاعر له قوة وسرعة ومضاء، وتدمير وللنار قدسيتها وقدرتها على حماية من يلجأ إليها ٠

فهي بأيدي الفوارس كالنار يقول عبيد بن الأبرص :

---

(٤) الجمهرة لأبى القرشي دار نهضة مصر للطبع والنشر مصر ٠ د٠ت ص ٣٧٣

(١) - Dictionry of symbls and Imagery p " 187"

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦

دَعَا مَعَاشِرَ فاسْتَكَّتْ مسَامِعُهُمْ يَالَهْفَ نَفسْيِ لَوْ تَدْعُو بني أَسَـدِ

تَدْعُو إِذَا حامى الكُمَاه لأَكَسِلاً إذا السُّيُوفُ بأيْدى القَومِ كالَوقَـدِ (٤٧٣)

وتطير من أطرافها النار في الكتيبة عند علقمة الفحل : فيقول :

دافعَ قَوْمِي فِي الْكَتيبــة إِذْ طار لأطراف الظبات وقَــدْ (٤٧٤)

وهى عند عنترة تشعشع في استعمالها كالنار وهى تلتصق بالزنود :

تَرَى بيضًا تشَعْشَع فِي لَظَاهَا قَد الْتَصَقَتْ بِأَعضَاءِ الزُّنُــوْدِ(٤٧٥)

وأيضاً " كالقبس الملتهب عند عنترة :

تَتَابَعَ لا يبتغى غَيْــرَهُ بِأبيضَ كالْقَبس المُلهَــبِ (٤٧٦)

وعند طفيل أيضاً " ضرام بكفي قابس " :

وَيجْعَلُ دُوني مَنْ يَوَدُّ لَو أَنَّكَمْ ضِـرَامٌ بِكَفّى قابِس يَتَلهَّــبُ

وَأَصْبَحَ لاَ يْدرِى أَيَقعُدُ فِيْكُـمُ عَلَى حَسَكِ الشحْنَاءِ أَمْ أَيْنَ يذْهَـبُ(٤٧٧)

(٣) ديوان علقمة بشرح الأعلم الشنتمرى دار الكتاب العربي حلب ١٩٦٩ص ١٠٤

(٤) ديوان عنترة بن شداد ص ٤٤

(٥) المرجع السابق ص ١٧ .

(١) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام ص ٩١

obeikandl.com

ولا تخفى عبادة العرب للنجوم ومعرفتهم بعلومها فقد كانوا يستسقون بها ويتبركون بنوئها ، وخاصة نجمة الصباح الزهرة ([٤٧٨]) ٠

ووصف السيف بالنجوم والشهب لا يستبعد أن يكون صادراً عن فكر ديني يبعث على التفاؤل والاستبشار بالسيف عند وضعه بالنجم ، والنجوم والكواكب لا تخفى علاقتها بالنار ([٤٧٩])، إذن هذا الوصف يمثل طقوساً وعبادات لها رواسبها ، وإن كان قد عفي عليها الزمن ، وظهرت في هذه الفترة بشكل باهت إلى حد ما إلا أنها تدل على دور النار في حياة العرب الدينية ، كالسيوف عند عنترة تلمع كلمع البروق في ظلام الليالي السوداء فيقول :

وَتَلْمَعُ فيها الْبيضُ مِنْ كُلِّ جَانِب كَلَمعِ بُرُوْق فِي ظَلامِ الْغَيَاهِـبِ ([٤٨٠])

وعند أوس بن حجر مثل تلالؤ البرق في السحاب فيقول :

وَأَبْيَضَ هِنْدياً كَأَنَّ غــَـرَارْةُ تَلاَ لُؤَ بَرْق في حبي تَكَلَّــلا([٤٨١])

وعند كعب ظبات السيوف لها كلمع البرق في السحاب الأبيض :

رميت نطاةُ مِنَ الَّرسُوْلِ بِفَيْلَـق شَهْبَاءَ دَاتَ مَنَاكِب وِفِقَــاْرِ

بالُمرهَفاتِ كأنَّ لَمْعَ ظبأَتِهَــا لَمْعُ السَّوَارِي فِي الصَّبِيرِ السَّارِي([٤٨٢])

---

(٢) المفصل في تاريخ العرب د٠ جواد على حـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨
وراجع التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون ص ١٣٨

(٣) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ١٣ ٠

(٤) ديوان عنترة بن شداد ص ١٥ ٠

(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٨٣ ، ٨٤

(٦) شرح ديوان كعب بن زهير ص ٣٠

وعند هرم الغنوى السيف يلمع كتلماع الغمام وهو البرق : فيقول :

وَأَبْيضَ صَارم " شُقَّت إلَيــهِ حُشَيَبتُه كَتَلْمَــاعِ الْغَمَــامِ (٤٨٣)

ووصف السيف بالبرق في الشعر لا يمر علينا بدون تدبر ما للبرق لدى الجاهليين من مكانة تبعث على التأمل، فالبرق رسول الخير والغيث، وإشارة الأمن والخصب، وكان الشعراء يبيتون له يترقبونه ويقفون له فوق الجبال، ويأرقون لتأخره وعند مجيئه تهل به البشرى بميلاد جديد تزدهر به الحياة وتثمر ، إذن لا ينتهي بنا التفسير عند إدراك العلاقة بين لمعان السيف وضوء البرق ، ولكن الأمر أبعد من ذلك ، فالعلاقة أسطورية فهم يستبشرون بوصف السيف بالبرق كما يستبشرون بظهور البرق نفسه ٠

والرمح أيضاً لم تخطئه صور النار لدى الشعراء الجاهليين ، فهو كالنار أو كنبراس التهامي أو تخالة بالليل لهبا أو كالنجوم والشهب في الليل الأسود :

فعند الخنساء تصف الرمح عند رثاء صخر قائلة :

عارض سَحْمَاء رُدَيْنِيَّــة كَالنَّار فيها آلَةٌ مَاضِيــةْ (٤٨٤)

وعند عنترة بن شداد الرمح كالنار في الليل الأسود :

وُمُطَّردُ الكُعوبِ أحضُّ صَدْقٌ تَحَالُ سِنانَه بِاللَّيْــلِ نَارَاً(٤٨٥)

ويصف عنترة الرمح أيضاً بالنار التي لا تخمد فيقول :

---

(١) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام ص ١٠٧

(٢) ديوان الخنساء ص ١١١

(٣) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمرى حـ ٢ ص ١٣٤ ٠

وَتَنُوفَة مَجُهولَــة قَد حُضْتُهَا بِسنَانِ رُمح نَارُه لَمْ تَخْمَـدِ ([٤٨٦])

وهو كسراج الحداد " النهامي عند النابغة الذبياني :

وَأَسَمَرَ مارن يلتاحُ فِيْـــهِ سِنَانُ مِثْلُ نِبْرَاسِ النّهَامي ([٤٨٧])

والرماح كاللهب عند قيس بن الخطيم:

غودر عند المكــرِّ سيدهــم فيه سنان تخاله لَهَــبَا ([٤٨٨])

وعند عبيد بن الأبرص كأنه اللهب الشاعل ([٤٨٩]) وكأنه لهبان جمر عند رجل من بني عبد قيس ([٤٩٠]) وهى كنجوم الليل الأسود في وضوح ضوئها عند عنترة بن شداد ([٤٩١]) وكأنه شهاب يبرق عنده وأيضا يبرق في ظلمة الليل ([٤٩٢]) ويلمع أيضا في رجل المصاب كلمع الشهاب ([٤٩٣]) ٠

ولعلنا نلمح أن صور الرمح تقترب في تشبيهاتها وملامحها من صور السهم والسيف في أركان هذه التشبيهات وطريقة عرضها ، مما يشير إلى أن المسألة ليست وجود وجوه شبه مباشرة، كاللمعان والبريق والسرعة والقتل فحسب بل، الأمر يتعدى ذلك كله إلى العلاقة الأسطورية بين النار والحرب من خلال أدواتها، فصورة النار تتكرر في صورة الحرب

---

(٤) ديوان عنترة بن شداد ص ٥٦ ٠

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص ١٣٤ ٠

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٣٥

(٢) مختارات شعراء العرب تحقيق د٠ نعمان طه ٣٨٩

(٣) وراجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٥

(٤) المفضليات للمفضل الضبي ص ٦٦

(٤) ديوان عنترة بن شداد ص ٥٧ ٠

(٥) نفسه ص ٣٦

(٦) نفسه ص ١٣

لتكشف لنا النقاب عن الأصول الميثولوجية لفكرة النار الأم الشريرة الشمطاء المتجسدة في الحرب لدى الإنسان العربي القديم، أو النجدة التي تنقذ الأحلاف والبطون من ظلمة العار، والهزيمة فهي تشفى الغل وترد الثأر وتذهب الغيظ ٠

وترد صورة النار في أجزاء أخرى من لوحة الحرب ، فتظهر النار في حلق المغافر للفرسان، وينعكس ضوء السهام على الدرع كأشعة الشمس ، وكأن الشاعر الجاهلي لا يرى في الحرب إلا ناراً متأججة في حريق هائل شمل كل أركان اللوحة التى يرسمها للحرب، ولا يستنكف الشاعر من إدخال النار في أي جزء من مشهد الحرب ٠

فالنار في حلق المغامر عند الخرنق بنت بدر :

سَمِعتْ بَنُوَأسدَ الصيَاح فَزادَهَا عَنْدَ اللِّقاء مَعَ النِّفَارِ نِفَــاراَ

وَرَأَت فَوَارِسَ مِنْ صَلِيْبةِ وَائِل صُبُراً إذا نقُع السنابكِ ثـاْرَا

بِيْضَاً يُحَزِّزْنَ العِظَام كأنَّمَــا يُوْقِدْنَ في حَلَقِ المغافِرِ نَاْرَا (٤٩٤)

وكأن الجنود هنا ألبستهم الخرنق حلقاً من نار فى مغافرهم ، وكأنها تمائم يحتمون بها بشكل طقوسى لا بد من استخدامها أو ذكرها في معرض الحديث عن الحرب عند الجاهليين ٠

وهذه التمائم، وإن لم تظهر في حِلق المغافر تظهر على القوانس منيرة ملتهبة تبرق فوق الغرر كأنها فوق ربا مرتفعة ، يقول عبيد بن الأبرص :

---

(٧) ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان تحقيق د٠ حسين نصار طبعة دار الكتب مصر ١٩٦٩ ص٣٣ ، ٣٤

بَلْ لا مَحَالَةَ مِنْ لِقَاءِ فَـوارِس كرم مَتَى يُدْعَوْا لَرَوع يَركَبُوا
شَمَ كَأَنَ سَنَا " الْقوانَسِ" فَوْقَهُم نَارٌ عَلَى شَرَف اليفاع تَلهَّـبُ (٤٩٥)

ويقول المرقش الأكبر :

بِأنَّ بِنِي الَّرحْم سَارُوا مَعَـًا بِجَيْش كَضَوءِ نُجُوْمِ السَّحَـرْ
فَمَا شَعَرَ الْحَيُّ حتَّـى رَأَوا بَرِيْقَ الْقَوانِسِ فوق العُـرَرْ (٤٩٦)

والبيض كالنجوم عند الأعشى فوق الفرسان فيقول :

أَذاقُوُهُمُ كَأْساً من الموت مُّرَة وَقد بَذحَت فُرسَـانُهمْ وَأَذلَّتِ
سَوَابِغُهم بِيض خِفَافٌ وَفَوقهُمْ مِنْ الْبَيْضِ أمثَالُ النجُومِ اسْتَقَلَّتِ(٤٩٧)

وهى شهب عند السموأل من الزهو واللمعان :

وَالسمرُ مطرورة مُثْقَّفَـــةٌ والبيضُ تَرْهىْ تَحَالُهَا شُهُبَـا(٤٩٨)

وتظهر " الدروع " أيضاً عند أوس وكأنها مرآة تنعكس عليها صور السهام كأنها قرون الشمس أو أشعة الشمس وهى تصادف طلقاً ، من النجم كما يشير د٠ على البطل ٠ (٤٩٩)

(١) ديوان عبيد بن الأبرص دار صادر بيروت د٠ ت ص ٣٣
وانظر مختارات بن الشجري تحقيق د٠ نعمان طه وروايتها اليفاع
(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو، شعر المرقش الأكبر ص ٢٨٥
(٣) ديوان الأعشى ص ٣٤
(٤) ديوان السموأل ص ٧٧
(٥) الصورة في الشعر العربي د٠ على البطل ص ١٦٤
وراجع ديوان أوس بن حجر ص ٨٤ ٠

وتظهر الدروع عاكسة لصور ضوئية ولو خيالية إلا أنها تعطى واقعا للحرب ، لا تترك فيه صورة النار ٠ وقد تمددت هذه الصورة في عصور الشعر التالية بعد الإسلام ، وإن كانت قد فقدت كثيراً من مضمونها الأسطوري مما استنزف بكارتها يقول ابن قلاس :

فَابْعَثْ بدرْع كجلْدِ الصّلِّ يصْحَبُهَا مُهنَّدُ كَلِسَانْ الصَّارِم الذَّكَـرِ

وَجَّنة شبهت فيها كَواكِبهَـــا شَكلَ الثُّرياً بَدَت فِي دَأرةِ الْقَمَرِ(٥٠٠)

من هذا العرض نستطيع القول بأن النار قد تمثلت في أدوات الحرب التي جسدتها من قبل ، لتمثل فعل أمان وطمُأنينة لمن يحمل هذا السلاح الذي يرهب العدو وهو يصفه بالنار في شكلِ دعائي في ذات الوقت ليوفر له أسباب الأمن ، ويقيه شر الحرب المدمرة ، ويحوطه بسياج من السلام المنعكس عن قوة حربه وسلاحه المستمدة من النار التحى شكلت صور ذلك السلاح في شعره ٠

وصورة النار وخيول الحرب قد تناولها البحث في معرض حديثه عن نار الحرب واستخدام صور النار في وصف أدوات الحرب ، واستعرض أنواع السلاح من سيف ورمح وسهم ودرع ، وقد ظهرت صور النار بارزة في رسم الشعراء ووصفهم لهذه الأسلحة من مختلف جوانبها وهنا يتناول البحث الخيل كأداة من أدوات الحرب عند العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وليست أداة عادية بل تعد من أهم أدوات الحرب وأقواها، لدرجة أن حبها والاعتزاز والاهتمام بها قد ملأ على العربي حياته فكان الرجل يشبع فرسه ويبت

(١) راجع غرائب التنبيهات في عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر المصري تحقيق د٠ محمد زغلول سلام ، د٠ مصطفى الصاوي الجوينى دار المعارف مصر ١٩٨٣ ص ١٩٥ ٠

جائعا وكان الرجل يُعِّير أخاه على هزال فرسه؛ وذلك لأن لهم فيها عزا ومنعة ، وعلى ظهورها يخوضون الوقائع والحروب ٠

فهي عدتهم عند الغـــارة والغزو والحرب ، وكانوا يرسلونهـــا على الطريدة وفى السبـــاق ([٥٠١]) وعلل البعض اهتمام العربي بالخيل بجوار الإبل ، فافتخر بنسبها ؛ لأنها وسيـــلة رحلتـــه وعونـه في غزوه وهربه وعلى
تحقيق الانتصار يتميز الجواد بالسرعة الفائقة ([٥٠٢]) لذا امتلأ الشعر الجاهلي بصور الخيول ، وقد استخدم الشاعر مواد كثيرة ومتزاحمة لرسم صورة الفرس شملت ، والظبي، والنعامة، والذئب، والثعلب، والصخر، والمطر، والجبل، والحرارة ، والمرجل ([٥٠٣]) لذا صورها الشاعر وأبرزها ضخمة الجسم صلبة البنيان متينة العضلات، في منتهى السرعة عند الجري لا يفتر نشاطها ([٥٠٤]) .

وأخذت عليه نفسه من خلال شغفه بوصفها وحبه لمواصفات بعينيها يريدها متوفرة في خيله ؛ وحتى تشبع حاجاته النفسية فيها ، وهى استقاء الشعور بالقوة والقدرة على مواجهة تحديات عصره فاعتنى العربي بالفرس اى اعتناء حتى أخذ عليه خياله وملأ نفسه إعجابا ، ومضى مع كل عضو من أعضائه واصفا " مصورا" حتى أنه في النهاية جمع في حصانة حيوانات عديدة بل عدة موجودات في الأحياء والجماد وكان يخلق لهذا الوجود صورة ينفرد بها ، ويجمع له صفات القوة والكمال فيقول امرؤ القيس:

---

(٢) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د٠يحي الجابورى مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣ ص ٨٦

(١) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي د٠ منذر الحبورى ص ٤٧
وراجع الصورة في الشعر العربي د٠ على البطل ص ١٢٦
(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي د٠ سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص ٣٨
(٣) الأمير الجاهلي امرؤ القيس الكندي د٠على الجندي دار الفكر العربي مصر ١٩٦٨ص ٢٣٥
وراجع الطبيعية في الشعر الجاهلي د٠ نورى حمودى القيسي مكتبة النهضة العلمية بيروت ١٩٨٣ ص ١١٠

وَقَدْ أَغْتَدِى والطَّيْرُ فَي وكنَاتِهَا بِمُنْجَرِد قَيْدِ الأَوَابْدِ هَيْكَـلِ

عَلى الْعقبِ جَيَّاش كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ إِذَا جَاشَ فِيه حَمْيُهُ عْلُى مِرْجَلِ (٥٠٥)

وقد أرجع د٠ مصطفى ناصف هذه العناية بوصف الفرس إلى باعث واحد ، هو الرغبة في الشباب والحياة الدافقة ٠ والشباب من حيث هو طاقة إبداعية ليس حلا لمشكلات شخصية في حياة الشاعر نفسه وإنما هو أسلوب لتغيير حياة الناس (٥٠٦) مشيرا في موضع آخر، إلى أن الفرس – وبخاصة فرس امرىء القيس – صورة أخرى للإنسان المتمرد الثائر ، وعاد قائلا : إن الشاعر الجاهلي يبدو وهو يقسم بالخيل والقسم عبارة عن التجاء الإنسان إلى مصـــادر القوة ليحتمي بها ، ويؤكد صلته بعالمها وانتماءه إليها، فكانت الخيـل توصف في الشعر الجاهلي بأنها عاديـات تضج بالغبـــار وتغير في الصبـــاح البـــاكر (٥٠٧) وقد أثار

القرآن الكريم هذا المعنى ، وهو يقسم للعرب بهذا الكائن المهيمن على خيالهم وفكرهم ، وقد عرض القرآن أيضاً لاهتمام النبي سليمان عليه السلام وقصته مع الخيل " الصافنات الجياد" وتناول المفسرون المسلمون وصف هذه الجياد بشكل تدخل فيه الأسطورة (٥٠٨)

---

(٤) الصورة في الشعر العربي د٠ على البطل وراجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٢٧
(٥) قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠ مصطفى ناصف ص ٨٨
(٦) دراسة الأدب العربي د٠ مصطفى ناصف ص ٢٠٠

(١) " ضبح الخيل " : وهو صوت نفسها ٠ والضج يقترب من منال النار، ويؤكدها " الموريات" أي بأقامها إذا جرت " قدحاً " بحوافرها بأرض حجارة راجع اللسان حـ٤ ص ٢٥٤٦ ، ٥٤٧٢ وراجع تفسير الجلالين ص ٥١٧ ، وابن كثير حـ ٤ ص ٥٤٩ ، والقرطبي حـ ١٠ ص ٧٢٤٧ ، والفخر الرازي مجلد ٦٦ حـ ٣٢ ص ٤٣ ، ٦٤ ٠

٠ وهنا يعود بنا البحث – بعد اقتراب الدكتور ناصف من المعول النفسي والفلسفي لوصف الخيل وإشارات المفسرين المسلمين – إلى الأصول الدينية لصورة الفرس في الفكر العربي ٠

وهل كان السبب وراء اهتمام العربي بالخيل سبب برجماتي ينتهي عند عند المنفعة الحياتية ؟؟

وتحتاج الإجابة عن هذا السؤال رجوعا إلى كتب التاريخ والدين والأساطير القديمة ، حتى نضع أيدينا على هذه الأصول وعلاقتها بصور الفرس المقترنة بصورة النار في الشعر الجاهلي ٠ فقد ورد كثير من الأخبار تشير إلى مكانة الخيل الأسطورية من خلال الممارسات ، فقد عقر العرب على قبور موتاهم من الأشراف الخيل وكانوا يلطخونها بدمائها ([٥٠٩]) وقد ارتبطت صورة الفرس في السماء بالمطر والماء فمن صور الكواكب التي على هيئة الفرس وجدنا " اسم " الدلو " و " سيد المطر"([٥١٠]) فاتخذ الفرس رمزا للخير والسعادة وأمل المستقبل ، وذكر القزوينى طقوس الاستمطار بالفرس عند الصينيين إذ كانوا يجتمعون في سني القحط ويلقون فرسا في غدير عندهم ، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء منعوه ، ومادام الفرس في الماء يأتيهم المطر ، فإذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قلة الجبل وتركوه تأكله الطير([٥١١]) ٠

---

(٢) قالوا الجياد ذات أجنحة – وهذا من الأساطير راجع ابن كثير حـ ٤ ص ٣٣

القرطبي حـ ٨ ص ٥٦٣٦ ز " وباقي التفاسير قالت هي " الفرس تقوم على ثلاث أرجل ٠٠ "

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د٠ أحمد الحوفى ص ٤٦٢

(٤) عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب د٠ لطفي عبد البديع

مكتبة النهضة المصرية ط١ مصر ١٩٧٦ ص ٢١٦

وآثار البلاد وأخبار العباد لزكريا بن أحمد القزوينى دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ٥٤

ويشير ديتلف نيلسون إلى إنابة الحصان عن الإله الشمس في بلاد العرب الجنوبية ([٥١٢]) وقد أورد د٠ جواد على هذه العلاقة بين تماثيل الخيل والإله الشمس "ذت بعدن" ([٥١٣]) كما ذكر أيضاً " الاسبزين " وعبادتهم الخيل في البحرين ([٥١٤]) ، وهكذا يبدو أن صورة الفرس قد ارتبطت بالفكر الديني الجاهلي ٠

فبجانب صورة الفرس الأرضية ، توجد صورة الفرس السماوية ولهذا حظيت الخيل باهتمام شديد وعناية فائقة من أجل ذلك كان العربي يشبع فرسه ويجوع عياله ، وكان من العار بيع الفرس لأي سبب وكان يمثل بيع الكرامة والشرف والعزة ، وكان مقترنا بزواج الأم من غير الأب وإنجابها من غيره ويرد ذلك عند الأسعر الجعفى عندما عيَّر أخوته قائلاً :

بَاعُوا جَوَادَهُمُ لِتَسْمَنَ أمَّهُـمُ وَلِكَي يَعُوْدَ عَلَى فِرَاْشهِـمُ فَتَى

وهذا الأسعر قد عد الخيل أكثر حصنا من جدران المنازل بالقرى : قائلاً ([٥١٥])

وَلَقدْ عَلِمْتُ عَلَى تجَشُّمي الردى أنَّ الْحُصُوَن الْخَيْلُ لاَ مَدَرُالقُـرَى

وهى عنده عز ظاهر تزيل الغمة وتكشف ظلام الليل قائلاً :

إنّي رَأَيْتَ الْخَيْلَ عِزًّا ظَاهِـرًا تُنِجى مِنَ العُمَّى وَيَكْشِفْنَ الَّردَىّ([٥١٦])

---

(١) التاريخ العربي القديم ديلف نيلسن ترجمة فؤاد حسنين ص ٢٢٠

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٦ ص ١٦٩ د٠ جواد على

(٣) نفسه حـ٦ ص ٦١ ، ٦٩٤

(٤) الاصمعيات لأبى سعيد الأصمعى ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

وراجع كتاب الوحشيات "الحماسة الصغرى لأبى تمام " ص ٤٤

(٥) راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠ مصطفى ناصف ص ٨٥

وراجع الجمهرة لأبى زيد القرشي بيت بشر بن أبى خازم ص ٤٠١

(٦) راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ٩١

هذه المكانة الرفيعة التي اكتسبتها الخيل في حياة العرب ، ما نالتها إلا لمشاركتها لهم غمار حروبهم ، فلم يقتصر الأمر على عد بيعها عارا أو أنها حصون أو أنها عز ظاهرة ، بل وصل إلى عدها آلهة تضيء للناس السبيل ٠

ومتى ؟ حينما يسيل الدم على نحورها في المعارك فيولد السلام والعز من خلال هذا المخاض الذي مثل حلم هذه الولادة ([٥١٧])

ويظهر الفرس عند العرب أمام الجيش يلمع مبشرا بالنصر ويرد ذلك في قول الأعشى :

كَأَنَّه بَعْدَ صِدْقِ النَّاْسِ أَنْفُسهِـمْ باليأْسِ يلْمَعُ مِنْ قدامه البِشــرُ

لا يعجلُ القَوْمَ أنْ تَعْلي مراحِلُهُم وَيدلِج الليلَ حتَّى يفسَح البَصَـر([٥١٨])

وهذا الفرس المذكور لامع المنظر ، مطلق كريم مبشر ، وقال المبرد في أمالي الشريف والخزانة :لانعلم بيتا في يمن النقيبة ، وبركة المطلع أبرع من هذا البيت([٥١٩])٠

والفرس في الحرب شهاب يستضاء به كالقمر في الليلة المظلمة ولا تخفى مكانة القمر الدينية عند العرب قبل الإسلام ، فكان عند عرب الجنوب هادياً للناس سميراً لرجال القوافل ، وهو الرب القديم للكعبة وهو الإله القمري " هبل " ([٥٢٠]) ومن أسمائه عند عرب الجنوب : (ود) وعند المعنيين (المقه) وعند السبئيين و(عم) عند قتبان ، وسين في

---

(١) الأصمعيات ص ٩١ (٢) السابق ص ٩١ الهامش

(٣) المفصل في تاريخ العرب د٠ جواد على حـ٦ ص ٥٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية بركلمان ص ٢٦ ٠

(٤) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ١٩٤

حضرموت كما في بابل ([٥٢١]) ٠ ووصفه ابن الكلبي في صورة الصنم" ود" في شكل رجل ([٥٢٢]) وذكر الفخر الرازي بأنه الإله (ود) أيضاً في تفسير سورة نوح ([٥٢٣])

يقول امرؤ القيس :

الخيرُ ما طلعتْ شَمسٌ وَمَا غربَتْ مُطَلَّبُ بِنَواحِي الخَيْلِ مَعْصُوب ([٥٢٤])

وهذا البيت في زيادات الطوسي ويشك في صحة روايته ، وليس هذا موضع تحقيق ولكن يهمنا دلالة التفاؤل بالخيل في الفكر العربي وهذا التفاؤل والاستبشار والتقديس، الذي نالته الخيل من خلال مشاركتها للعربي في ساح القتال ٠

وصور الشعر الجاهلي تدعم كل ما ذُكر من مكانة للخيل في الخيال العربي كأداة حرب والتي استخدمت النار بشكل فعال في رسم صورتها ووصفها وصفا " دقيقاً" يرصد كل معالم جسمها وحركتها وانفعالاتها في الميدان وأيضا الصور الشعرية تستند على هذه الأصول لتثبيت أنها – الصورة الشعرية –ليست كلاما مرصوفا ، أو أنماطا تقليدية ، وإنما وراء هذه الصور دلالات دينية عميقة في القدم ٠ واستمدت عمقها من مكانة النار في الخيال الشعبي العربي مما جعلها تظهر بهذا الكم من التكرار في تراث الجاهليين الشعري ، فيوصف الفرس حينا بالنار المضرمة وكالمرجل يغلى في اهتزامه عند الجري ، والأرض تحت قدميه متقدة من سرعة جريه ولساقه الهوب ، ويطير الشرر من إحمائه ، وتدخل النار أيضا في وصف لونه

---

(٥) الأصنام لابن الكلبي تحقيق د٠أحمد كمال زكى الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ص ٥٦

(٦) الفخر الرازي " مفاتح الغيب " مجلد ١٥ حـ ٣٠ ص ١٤٤

(٧) ديوان امرىء القيس الكندي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٢٥ من الزيادات " للطوسي"

: فتخيل الشاعر في غرته سراجا " منيرا ، وكأن عنقه أوقدت فيه النار ، وقد استخدم الشاعر التشبيه المقلوب فوصف لون اللهب وكأنه ناصية الحصان الأشقر ٠

كما شبه الفرس بالبرق في سرعته وإمضائه ، واستخدم الفرس أيضا للتعبير عن جو المعركة الملتهب كأنه حريق يخرج الحصان منه مغطى بالدخان كأصابع المقرور الذي وضع يده على النار فأصابها دخان غير لونها ، ويظهر سنا النار على أعرافه ، ولجامه كأنه بين عرفج ملتهب ، كل هذه الصور للفرس تجعلنا نستوحي ما كان للنار وعلاقتها بالخيل من مكانة في نفس العربي كجزء لا يتجزأ من علاقة النار بسلاح الحرب ٠ ونلمس كيف جسد العربي نار الحرب بشكلها الشرير المخيف لتصبح لصالحه فتهئ له الأمان ويرسلها كلعنة على عدوه فى نار السلاح كنار حرب ثم استبشر واحتفل بها في وجه فرسه وعرفه ، وعلى شعره وتحت قدمه ، وأصبحت ظاهرة لا ينبغي إهمال الدراسة لها ، فالنمر بن تولب يغير " بصهبى" وهى ملتهبة قائلاً :

لَقَدْ غَدَوْتُ بِصُهْبَى وَهِيَ مُلْهبةٌ إلْهَابُها كَضِرامِ النَّارِ فِي الشِّيح (٥٢٥)

"وصهبى " اسم فرس له وهو يرى فيها عند جريه بها في غدوة للحرب كأنها ملهبة وليس أي لهب ، إنه لهب مثل لهب النار حينما تضرم في الشيح فلها لهب شديد وسريع ٠ وهذا يعكس ما في نفس راكب هذه الفرس من إلحاح وإشباع لرغبة شديدة في القتال ، واستعجال اللقاء فكأن الفرس تحته نار تتأجج متمثلة في ذبذبته فوق ظهرها ٠

(١) ديوان النمر بن تولب مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٦٩ صنعه د٠ نورى القبو ص٥٠

ولا ننسى أن الصهبة التي اشتق منها اسم الحصان درجة من درجات الصفرة وهى لون النار أي أن الفرس يحمل صفة النار واسمها ٠

وعند أوس بن حجر جرى الفرس يحدث صوت "هزيم" كصوت الميسم المحمى " الإبرة " في الوبر فيقول :

نجاكَ جَيَّاشٌ هزيـمٌ كمـــا أحميت وَسَ الوَبَرِ المَيْسمَـــا(٥٢٦)

وهذا الميسم حينما يكون محميا ويوضع في الصوف يكون له صوت لسع الصوف هذا الصوت تمثله الشاعر في هزيم فرسه وهو يجرى للمعركة ، وعند سحيم الفرس مرجل بلوك اللجام فيقول :

ضوامرُ قد شَنَّهُنَّ الوَجيـفُ يُثِرنَ العَجَاجَة دُوني ضِعافَـا

تَقَدَّمْتُهُنَّ عَلَى مِرْجَـــلٍ بَلُوك اللِّجامَ إذا ما اسْتهافَـا (٥٢٧)

والمرجل هو القدر الذي يغلى فيه الماء أو الشئ الذى يطبخ ويطهى وله اهتزاز وتذبذب ، وهذه الصورة يستوحيها الشاعر في هزات فرسه التي يستعذبها وتشبع فيه والرغبة في الانتقام متصورا صورة المرجل وشدة حرارته وله غلى أيضا" كغلي المرجل يتخيله امرؤ القيس في اهتزام فرسه فيقول :

عَلَى الزبل جَيَاش كأنَّ اهْتِزَامَهُ إذَا جَاشَ فِيه حَمْيُة عَلْىُ مِرْجَـلِ (٥٢٨)

والأرض الرقيقة عنده أيضا تتحرق تحت قدم هذا الفرس قائلاً :

١- ديوان أوس بن حجر ص ١١٤ " جياش" : شديد الجري " هزيم " : شديد الصوت
٢- ديوان سحيم عبد بني الحساس تحقيق د٠ عبد العزيز الميمنى الدار القومية للطباعة والنشر مصر ١٩٦٥ ص ٤٦
٣- شرح المعلقات السبع للزورنى ص ٢٧
٤- ديوان امرؤ القيس الكندي ص ٢٢٥ ٠

إذا تَبَصَّرها الرَّاؤُونَ مُقْبِلَـــةً لاحَتْ لَهُمْ غُرَّةٌ مِنْهَا وَتَخْبِيْـــبُ

رقاقُها ضرمٌ وجريُهَاْ جـــذمٌ وَلَحمُهاَ زيمٌ وَالْبَطْنُ مَقْبُـــوبُ (٥٢٩)

والساق نفسها لها لهب عنده فيقول :

فَللسَّاقِ أُلْهُوْبٌ ولِلسَّـــوْطِ درَّةٌ ولِلزَجْرِ مِنْهُ رَجْعُ أَهْـــوَجَ مُنْعِبِ

تَرَى الْفَأرَ فِيْ مستنقع الْقَاْعِ لاَحِياً عَلى جُدد الصَّحْرَاْءِ مِنْ شَدِّ مُلْهِبِ(٥٣٠)

ونفس الصورة عند طرفة أيضاً الذي يقول :

فَهِي تَرْدَى فَإِدَا مَا أُلْهِبَـــتْ طَاَر مِن إِحْمَائِها شَـــدُّ الأزر(٥٣١)

وإذا تركنا صوت اهتزام الفرس وإلهاب جريه منتقلين إلى لونه ففروته بيضاء كأنها سراج عند النمر بن تولب :

جموم الشدِّ شَائِلَةُ الذِنَاْبَـــى تَحَاْلُ بَيَاضَ غُرَّتِهَـــا سِرَاجَا (٥٣٢)

وعند امرؤ القيس تظهر خلفية لصورة النار أو أثرها بمعنى أقرب في لون عنق الفرس كأنه أضرمت فيه نار فيقول :

وَسَالِفَةٍ كَسحُوقِ اللّبَـــا نِ أَضَرَمَ فيه الْغَوِيُّ السّعـــرْ (٥٣٣)

---

(١) ديوان امرئ القيس الكندي ص ٥١

(٢) ديوان طرفه دار صادر بيروت د٠ت ص ٥٨

(٣) ديوان النمر بن تولب ص ٤٨

(٤) ديوان امرئ القيس الكندي ص ١٦٥

وتتعانق صورة الخيل مع صورة النار بشكل جدلي وتتبادلان المواضع في عملية التشبيه ، فتُشَبَّه الخيل بالنار في صفرتها ولونها ، وتشبه النار بالحصان الأشقر عند أوس ، وهذا قلب في التشبيه ويفيد المبالغة من الوجهة البلاغية ([٥٣٤]) وإذا تعمقنا الصورة نجد بعداً أسطوريا فالشاعر من لأوعية ومن خلال الأفق الروحي الأسطورى لا يفاضل بأولويات ، فالحصان رمز لآلهة نارية، والنار رمز للحصان وهذا في إمكان الرؤى الأسطورية التي تذوب عندها حدود المادة ولوازم المنطق ٠ فيقول اوس:

إنْ كَانَ ظَنِّي فِي ابْنِ هِنْدٍ صادقًا لَمْ يحْقدُوها فِي السِّقَاء الأَوفَــرِ

حَتَّى تَلفَّ نخِيْلَهُمْ وزروعَهُــمْ لَهَبٌ كَنَاصِيَةِ الْحِصَانِ الأَشْقَرِ ([٥٣٥])

والأسعر الجُعفى يصور الخيل وهى خارجة من الحرب عابسة كأنها أصابع من كان يعانى البرد الشديد، وجلس موجها يده إلى النار بشكل غير واع فاسودت من دخان النار دون ما شعور منه من شدة ما يعانيه من البرد ، فكانت أصابعه شديدة السواد ٠

هكذا كانت الخيول عابسة عند الأسعر الجُعفى في المعركة يقول الأسعر:

يَخْرُجْنَ مِنْ خلَلَ الْعُبَارِ عَوَابِساً كَأَصَابِعِ المَقْرورِ أَقْعَىْ فَاْصطَلَىْ([٥٣٦])

وهذه الصورة يرسم الشاعر فيها خلفية لها توحي بمنظر الحرب متأججا وكأنه حريق ذو ضرام ولهب ودخان لدرجة أن الخيول اسودت ألوانها في هذا الحريق من شدة انكبابها واضطرارها إلى الاستمرار فيه بدون وعى، كما يضطر المقرور للاقعاء والانكباب على النار

---

(٥) راجع تقييم مدرسة عبيد الشعر الجاهلية في ضوء نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني

جميل عبد المجيد مواضع متفرقة

(٦) ديوان أوس بن حجر ص ٤٨ ٠

(١) كتاب الوحشيات لأبى تمام ص ٤٢ ، وراجع الأصمعيات ص ١٤٢

رغم حرارتها ودخانها فلا يشعر بها وذلك دليل على شدة ما يعانيه خارجها، فالحرب رغم قسوتها إلا أن المحارب وفرسه يضطران إلى معايشتها وما فيها من شدة دوافعها ، فدوافع الحرب أشد منها بذاتها، وهذا تصوير بالسالب حيث استخدم الشاعر صورة المقرور للتعبير عن النار، كآثارها على الخيول في الحرب، فالبرد عكس النار فالاستخدام للبرد في رسم صورة النار له دلالة فنية رائعة ٠

وطفيل أيضا يستخدم خلفية ترسم صورة الحرب من خلال الضوء الساقط على أعراف " الخيول " واللجام كأنه ضوء منعكس لعرفج ملتهب ، والحرب لديه نار عرفج ملتهبة ، وهذه صورة غير مباشرة للحرب تظهر في خلفية صورة الفرس فيقول :

كأنَّ على أَعْرَافهِ وَلِجَامِـــهِ سَنَا دَرِمٍ عن عرفجٍ مُتَلَهّــبِ (٥٣٧)

فالأعراف واللجام مضيئة لامعة في عيني الشاعر عند القتال ، وهذه صورة تناظر صورة بشر بن أبى خازم التي رأى فيها الخيل مشعلة النحور من الدم وأي دم ؟ دم القتال (٥٣٨) وهذا الضوء على عرف الفرس ولجامه ليس ضوءا ذاتيا هنا ، وإنما هو شعاع ساقط عن مصدر نار براقة شديدة كنار العرفج الملتهب وهذه أيضا صورة غير مباشرة استخدمها الشاعر وجعل الخيل فيها أو أعرافها كالمرآة تنعكس عليها هذه الصورة ٠

ولعل هذا العرض لتناول الشعراء الجاهليين للخيول في شعرهم واستخدامهم لها تجسيد صورة نار الحرب التي تمثلوها في غرتها (كالسراج) وفى لونهـــا

(٢) ديوان طفيل الغنوى طبعة لندن ١٩٢٧ ص ١٠

(٣) راجع الجمهرة لأبى زيد القرشي بيت بشر بن أبى خازم ص ٤٠١

(كالضوء – كالنار) – وفى جربها : " تتوقد الأرض " وفى ساقها (ألهوب) واهتزا مها (كغلي المرجل) ، وغيرها من الصور الواردة في استخداماتهم يكون حدد لنا رؤية العربي لنار الحرب من خلال الخيول ٠

والواضح أن الشاعر العربي رغم خوفه من نار الحرب وتخويفه منها وتهديد أعدائه بها ألا انه يفتخر بخوضها ويصف بها سلاحه في شكل دعائي ظهر فيه الشاعر الجاهلي كأنه يستعرض قوة سلاحه باستخدام مواصفات نارية يرهب بها عدوه ، وهذا معلوم حتى اليوم فيخاف العدو فلا يدخل معه في حرب فيأتي السلام الناتج عن قوة السلاح([٥٣٩])، وهو ما يُسمى حديثا بقوة الردع، فى الاستراتجيات الحربية المعاصرة٠

كذلك لا يستبعد تفاؤل الشاعر العربي بصور النار المقدسة في وصف سلاحه للتبرك بها ورجاء النصر من خلال اللجوء إليها في نعت سلاحه وخيله بها ٠

فأصبح ذكرها عند الحديث عن السلاح أو الخيل لازمة فنية تكررت حتى كانت كالتعويذة أو الطقس الممارس لديهم لاستجلاب رضاها ونصرتها ، وهذه الرؤية لن تخفى إذا تابعنا الظاهرة بقراءة متأنية ٠

وتصر صورة النار على الظهور في آثار الحرب بعد انتهائها فتظهر في آثارها في مواضع الطعن ، وعلى جثث القتلى المائلين كالجذوع المحترقة والضرب نفسه تتطاير خلاله الشرر ، والهلاك يكون كالغلي في القدر ، وبعد انتهائها يصبح أثرها في المجتمع كأثر الكي بالنار في لذعة وشكله ، وهذا المعنى يتوافق والمعاني السابقة التي جسدتها الحرب لصورة النار ، كل هذه الآثار المثارة في البحث لصور نار الحرب كفيلة بأن تترك أثرا كأثر النار ، فيصبح علامة شؤم وموضع ألم بتعاقب ذكره بين الأجيال من طول مكثه وشدة وطئه ٠

---

(١) راجع كتاب الصورة في الشعر العربي د٠ البطل ص ١٦١

فالطعن كإلهاب الحريق المضرم عند ما تفترش القناعند بشر بن أبى خازم فيقول :

قُلْ للمثلم وابنِ هِنْدٍ بَعْـدَهُ إنْ كُنْتَ رَائِمَ عِزّنَا فاسْتَقْـدِمِ

تَخْبُو الْكَتِيْبةُ حِيْنَ يقترش الْقَنَا طَعْناً كَإِلْهَابِ الْحَرِيْقِ الْمُضَـرَمِ

تَلْقَ الَّذِي لاَقَى العَدُوُّ وتَصْطَبِحْ كَأساً صَبَابتُها كَطَعْمِ العَلْقَـمِ (٥٤٠)

وهو مثل حش النار في الحطب الجاف وتكون فيه النار شديدة عند أوس :

لقونا فضمُّوا جَانِبْنَا بِصَـاْدِقٍ مِنَ الطَّعْنِ حَشّ النَّار فِي الْيبس

وَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ قىء رِمَاْحِهِـمْ حَبَطْتُ بِكَفَيَ أَطْلُبُ الأَرْضَ باللَّمْسِ(٥٤١)

والضرب مثل اللذع بالنار في عروق عنق وصدر السموأل من قوله:

فَشَكَّ أَوْدَاجَهُ والصَّدْرُ فِي مَضَضٍ عَلِيه مُنْطَوِيَا كاللَّذْعِ بالنَّـارِ(٥٤٢)

وهنا يمنح الأعشى السموآل الذي تحمل هذا الضرب الذي يبلغ في الألم اللذع بالنار، وعنترة أيضا يفتخر بدخوله الحرب والطعن في صدره مثل شرار النار يلتهب : فيقول

وَالخَيلُ تَشهَدُ أنِّى لاَ أُكَفْكِفُهَـا وَالطَّعْنُ مِثلُ شَرَارِ النَّارِ يَلتَهِـبُ(٥٤٣)

---

(٢) راجع الجمهرة لأبى زيد القرشي قصيدة بشر بن أبى خازم ص ٢٥

ورواها صاحب المفضليات ص ٣٤٩ لسنان بن أبى حارثة المرسى

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٥١ (٢) ديوان الأعشى ٠ دار صادر ص ٧٠

(٣) ديوان عنترة بن شداد ص ١١

(٤) شعراء النصرانية قبل الإسلام شعر الحارث بن عباد ص ٢٧٥

obeikandl.com

والموت الذي يعقب الطعن ٠ والضرب فى المعركة له حر كحر الحريق عند الحارث بن عبادة قائلاً :

لَقَدْ صَبَحْنَاهُمُ بالبِيْـضِ صَافِيَـةً عِندَ اللِّقاءِ وَحُر الْمَوتِ يَتَّقِـدُ (٥٤٤)

ويتركهم الموت أيضا كالجذوع المائلة من الحريق ، فأثر الحرب على القتلى كأثر الحريق على الجذوع فتقول الخرنق :

وَبعدُ بني صبيحة حَـوْلٍ بشرٍ كَما مَالَ الجُّدُوْعُ مِنَ الحرِيـق (٥٤٥)

والضرب أيضا يشبه النار في تطاير الشرر ، وهذا الاستخدام لصور النار للتعبير عن شدة الضرب ومرارة أثره فيقول طرفة :

وَلَّوْ وَأَعْطَوْنَا الَّذِي سُئِلُـوا من بعد موت سَـاْقِطِ أذرُهْ

إنَّا لَنَكْسُوْهُمُ وَإنْ كَرِهُـوا ضربًا يَطِيـرُ حَلاَلَـهُ شَرَار (٥٤٦)

ولعل من قبيل التوحد بين النار والدم وإطلاق كلمة شعاع على الدم المتطاير عند الطعن (٥٤٧) وعند أمية بن أسكر الكنانى :

ت قَوَمي اللَّدُو بِعُكَاظٍ طَيَّرُوا شَرَوا مِنْ رُوْسِ قومِكَ ضَرَّبَاً بالمَصاَّقِيْلِ (٥٤٨)

---

(٥) ديوان شعر الخرنق بنت بدر ص ٢٧

(٦) ديوان طرفة ص ٦٢ ٠

(١) راجع لسان العرب مادة "شعع "

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب حـ ١ ص ٢٦٩

وترد صورة المقتول في أوصاف المحروق أو الذي أُنضج في قدر وهذه صورة تعكس لنا صورة حريق القتيل في وهج الحرب أو الفتن، فتقول الخرنق لعبد عمرو حين وشى بأخيها عند عمرو بن هند فقتله ٠

أَرَىٌ عَبْدَ عَمْرٍو قدْ أَشَاط ابْنَ عَمِّهِ وأنضَجهُ في غَلّيِ قدْر وما يدْرِى (٥٤٩)

كأنها ترى في القتل حرقا وغليا في المراجل والقدور، وهذه صورة تجسدها الحرب للنار الشريرة التي تمثل الفتنة والدمار ٠

هذه صورة النار ذات الوجه الشرير في الشعر الجاهلي ، والذي جسدته الحرب في لوحتها الشعرية بتكرار لافت أخذ شكل النمط عند كثير من الشعراء ، وفى أغلب القصائد حتى تكاد الحرب لا تذكر إلا وتبرز صورة النار وضوءها يبزغ من لوحتها ٠

أما في التعبير عنها كأم مشئومة ذات وجه كالح قبيح يجر عليهم الدمار والفناء ، أو هي مثلها تماما في أفعالها وصفاتها فهي : تشب ، وتهب ، وتستعر ، وتضرم وتبوخ وتخبو ، وتنطفئ ، ولها صفاتها فهي حارقة مستعرة – ملتهبة شديدة الحرارة لها لذع، ولافحة كاوية ٠٠٠ إلخ ، وهى تشتعل بذاتها ، ويشعلها الإنسان انتقاما لنفسه ولعشيرته٠

هذه الصورة الشريرة للنار يرى فيها الإنسان الجاهلي كرجل حرب شيئا من الخير ، ودفع الشر رغم أنه حذَّر منها بالشكل ، والمواصفات سالفة الإشارة إليها ، إلا أنها عنده شفاء وإطفاء للغل وميلاد للكرامة ، واسترداد للشرف والأمن ٠

(٣) ديوان شعر الخرنق بنت بدر ص ٤٠

فهي منجية وفعل حياة) وقد تمثل ذلك في وصف سلاحه بها مفتخرا بهذا السلاح ، ومهددا لخصومه من حرقه وتدميره لهم به بشكل حرب دعائية ، أيضا كأنه يمارس تراتيل وتعاويذ يستبشر بذكرها ووصف سلاحه بها ، يصور النار كصورة الآلهة القوية المنتقمة في الفكر السامي القديم ، ورغم هذا تظهر صورة النار في مخلفات الحرب متمثلة في آثارها التي تشبه آثار النار كالكي واللدغ ، فهي ذات وصمة لا يسهل الخلاص من آلامها ، وتشويهها ، كأنه لوحة الحرب تعود قائلة : إن النار ذات لعنات يستمر أثرها رغم مضيها ، فهي شريرة ، وهذه الصورة لها أصولها في الفكر الإنساني القديم عموما عن النار ، والفكر السامي والعربي بشكل خاص فالنار شريرة يخشاها الإنسان ويرهبها.

obeikandl.com